

**القافزون
من شقوق الطين**

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

٢٠١٢ / ٢ / ٦٤٣

* يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

(ISBN 978-9957-09-502-4)

((كاتب من العراق))

2012 :

جميع الحقوق محفوظة بموجب اتفاق ©



أزمينة للنشر والتوزيع

تلفاكس : 5522544

ص.ب: 950252 عمّان 11195

شارع الشريف ناصر بن جميل ، عمارة 55 (الدوحة) ، ط4

info@azminah.com

info@azminah.net

Website: <http://www.azminah.com>

All right reserved. No Part of this book may be reproduced, stored in all retrieval system or trasmitted in any form or by any mean wiothout prior permissionin writingof the Authur.

جميع الحقوق محفوظة ، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من المؤلف .

تصميم الغلاف : أزمينة (إلياس فركوح)

التنضيد والإخراج الداخلي : أزمينة (نسرین العجوة)

الطباعة : شركة الشرق الأوسط / الأردن

تاريخ الصدور : آذار/ مارس 2012

دراسات

نضال البغدادي

القافزون
من شقوق الطين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

{إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ}

صدق الله العظيم

9 استهلال
11 متى يكبر الطفل الكبير؟
23 سراب القمقم الزجاجي
37 بوابة صانعوا المصائر
49 هيا لنحرز هدفا قبل النوم
67 هل تريد شراء زمن جميل لا يزول؟!
85 فلنعبر حافة السكين
103 بيضة القبان
119 فعلا ليس هناك حيطان
127 انتبه.. هناك سماء ايضا
139 انه وراءك الباب الآخر.. افتحه..
157 والعود حميد
159 المصادر

استهلال

«لا أحد يستطيع ان يجعل شخصا ما سعيدا بمجرد فرقة الأصابع، ان ما يمكنك أن تفعله هو ان تساعد الناس كي ترى ما هو مفيد لهم أن يروه ان تشير الى الأشياء وأن تأمل أن يروا ما تشير إليه» .

هاري غيلمان⁽¹⁾

قبل أن أشرع في هذا الكتاب، قرأت عدداً من الكتب التي تتحدث عن «تتمية الذات وتطوير النفس» وقد رأيت أن معظمها يتضمن نصائح وإرشادات يمكن أن تندرج ضمن مفهوم «افعل كذا ولا تفعل كذا». فقلت مع نفسي: «قد يستهوي هذا الأسلوب شرائح متعددة من الناس، ولكن غيرهم - وأنا منهم - قد يستهويهم اكتشاف الأمور بأنفسهم»، فالحكماء والفلاسفة والمفكرون وحتى علماء النفس هم في النهاية أناس مثلنا، وما ميّزهم عن غيرهم هو أنهم تمعنوا في الروابط بين الأشياء والمعاني، في الوقت الذي لم يلتفت إليها البقية، فكأنما تمثل أسلوبهم في مقولة «لا أنا الذي أفعل». ويبدو لي أن هذا من سنة الحياة، إذ فيها لا نجد شيئاً إلا وقد أضمر اللامثيل له.

ولما كنت أودّ أن أتحدث مع الناس جميعاً؛ فقد رأيت أن يتضمن الكتاب

1- بروفيسور في علم النفس .

المنهجين، ولهذا؛ فسيجد بعض القراء أنّ هناك نصائح وإرشادات، على طريقة «افعل لا تفعل»، تمّ اختبارها بالفعل من المختصّين وأهل الخبرة وأثبتت نجاحها وفعاليتها على أكمل وجه. وفي الوقت نفسه سيجد البعض الآخر من القراء الذين يقولون «لا أنا الذي افعل»، حوارات تحفّز على التفكير، وتدفع باتجاه إعادة النّظر في بعض القضايا التي قد نكون غير مركزين عليها، الأمر الذي قد يدعونا لأن نكتشف بأنفسنا ما الذي ينبغي علينا فعله أو عدم فعله إزاءها. وفي هذا المسلك حاولت قدر الإمكان ان يكون القارئ شريكاً لي في التفكير لاكتشاف الطريقة التي يستطيع أن يقفز بها من حال إلى حال.

إنّ ما جاء في هذا الكتاب من استشهادات لناجحين ومقولات لقافزين قد تكون مقصودة لذاتها عند البعض، ولكنّها ليست كذلك بالنسبة لآخرين، بمعنى أنّ المقصود ليس اتباعها بحدّ ذاتها، بل أنّ الغرض من ذكرها هو أن يحاول القارئ - إن كان بحاجة لذلك - أن يعرف مقولته الشخصية هو، وأن يكتشف طريقته في القفز ممّا هو فيه إلى ما يوصله إلى أهدافه ويحقّقه في أحلامه. وإذا كنت أريد أن أسمح لنفسني بأن أقدم لهذا النوع من القراء نصيحة ما فأنا أنصحهم بأن يفعلوا كما فعل «القافزون من شقوق الطين» حين تمكّن كلّ منهم من تغيير مسار حياته بنفسه من اللاشيء إلى كلّ شيء.

فسواء أكنت من فريق «افعل لا تفعل» أو من الفريق الثاني الذي يزعم أنّه يقول: «لا أنا الذي افعل»، أتمنّى لك الحظّ الوافر في مطالعتك هذه. واللّه ولي التوفيق.

نضال فاضل البغدادي

Nidhal.albaghdadi@gmail.com

متى يكبر الطفل الكبير ؟

«ابتعد عن أولئك الذين يسفهنون آمالك، فصغار الناس يفعل ذلك. العظماء من الناس هم من يشعرك أنك أنت أيضا، قادر على ان تكون عظيما».

(1)

في جميع الحضارات، يخشى الاطفال من الظلام لأسباب خفيّة، حيث تتجسد عندهم الأفكار بهيئة كائنات حية قادرة على أن تفتك بهم شرفتك.. بل أن هذه المخاوف لا تغادر حتى الكبار وخصوصا النساء..

أحيانا ابتسم في وجه ابنتي التي شارفت على بلوغ الثامنة عشر حين تخشى النوم في غرفتها إذا ما انقطع التيار الكهربائي، وأمزح معها بشأن خوفها وكأنني الفارس المغوار الذي لا يخشى شياطين الظلام، وآه لو تعلم أن مخاوفي لا تقل عن مخاوفها أو قد تزيد أحيانا، وأظنها بعد سماعها أو قراءتها لهذا الاعتراف ستواجهني بضحكتها الرنانة، وحينها لا مناص لي إلا أن أقر لها بأن ما أفعله معها هو من كبرياء الآباء وهو محاولة مني لازرع في نفسها الثقة المستلبة مني، من دون أن أعرف كيف ولا متى!!

1- كاتب امريكي ساخر.

أوليس غريبا أن نحمل بين طيّات نفوسنا هذا العالم المرعب، وأي قوة تلك لسطوة الخيال على الواقع بحيث تمنع الإنسان من الاختلاء بنفسه في الظلام الحالك..!؟

قد يكون سبب هذه المخاوف هو الزمن القريب حيث التربية الخاطئة القائمة على التخويف من المجهول، فمن المعروف في مجتمعاتنا أنّ الطفل إذا أصرّ على ما لا يرغب به الوالدان لسبب أو لآخر، فإنها يلجؤون إلى إطلاق بعض العبارات المجهولة بالنسبة للطفل مع الإيحاء بأمر مخيف.. في صغري كانوا يهددوني إذا أخذت بالإلحاح أو البكاء للخروج من الدار للعب في الطريق بـ «المحروقة»، فارتعب وأخاف منها وانتهى عن مطلبي من فوري وأنا لا أعلم ما هي أصلا ولم قد تفعل ذلك.. أو قد يكون السبب هو الحكايات التراثية ذات الطابع السحري والتي تتضمن شخصيات أسطورية مخيفة.. ومؤخرا ظهرت أفلام الرعب، وهي تجسيد عجيب لتلك المخاوف الباطنة التي تكتنزها نفوسنا.

أو قد يكون سبب هذه المخاوف هو ذلك الزمن البعيد، حيث كان البشر يسكنون الغابات والكهوف، ولا يعلم من أين يأتيه الخطر؛ من الحيوانات المفترسة، أم من اشباح الظلام.. فتكونت عنده مخاوف جعلته يخشى أيّ ظلال يراها تتحرك في عتمة الليل أو ضوء القمر، وهكذا تراكمت تلك المخاوف وتعاضمت في الذاكرة المجتمعية طوال السنين، وأخذت تكبر في باطن الإنسان ككرة الثلج، ولهذا فما أن تتوفر الظروف المشابهة كالعتمة والوحدة حتى ولو كانت في منزل يعجّ بالسكان فان تلك المخاوف تهجم وبقوة من باطن الإنسان إلى مخيلته لتؤثر على مشاعره وأحاسيسه بحيث لا

يملك معها الألهروب إمّا إلى الضوء وإمّا إلى الرفقة.

أقول: ربّما يكون هذا هو السبب كما تذهب بعض الدراسات، أو ربّما يكون السبب غير ذلك، وما يهمننا هنا هو أن نرى معاً وبوضوح أنّ العقل الإنساني الواعي - وعلى الرغم من سطوته وسلطته في عالم الضوء وأنس الخلطة - هو أضعف ما يكون في عالم الظلام ووحشة الوحدة، حيثُ يظهر سلطان «العقل الباطن»⁽¹⁾ بكل سطوته وجبروته، وواضح من هذا الاسترسال أنّ الأخير ذو قوة لا يستهان بها أبداً.

نعم، هذه هي قوة المجاهيل الغائبة في بواطننا، وهذه بعض سطواتها.. وبطريقة ما انعكست ظلال الخوف من المجهول على أمر بالغ الأهمية والأثر في حياتنا وهو «الأقدار».

القدر مؤثر بشكل كبير في حياة الناس، وهو يتسم بصفات المجهول الخفي، من هنا كان شأن الناس في الخوف منه وما قد يفاجئهم به كشأنهم مع الخوف من الظلام وظلاله، على الرغم من الفارق الكبير بين الأمرين، إذ القدر يفاجئ الناس بالخير كما يفاجئهم بالشر، ولكن الذكريات المؤلمة أكثر تعلقاً بالذهن الإنساني من تلك الذكريات السعيدة، حتى أنّ الجميع يجمعون أنّ «سنة السعادة ساعة، وساعة الحزن سنة».

أنّ الخشية من المجهول أثرت في مواقف الناس تجاه القدر، فمعظمهم

1- العقل الباطن: ويسمى أيضاً «العقل اللاواعي» و«اللاشعور»، هو مفهوم يشير إلى مجموعة من العناصر التي تتألف منها الشخصية، بعضها قد يعيه الفرد كجزء من تكوينه، والبعض الآخر يبقى بمنأى كلي عن الوعي. موسوعة ويكيبيديا، انترنت.

يراه نصف الكأس الفارغ ويتجنبه، وقليل منهم تمكنوا من القفز فوق مخاوفهم تلك ليروا النصف الممتلئ منه وركزوا إرادتهم عليه طلبا للانتفاع به ومنه.

لو راجعت سجل الناس لرأيت رجالا كثيرا ونساءً تخوفهم من مجاهيل القدر لا يقل عن تخوفهم من مجاهيل الظلام..

إنّ هذه الطاقة الهائلة من المخاوف المتراكمة في باطن الإنسان هي من أهم الأسباب التي تجعله يدبّ في مناكب الأرض مطأطئ الرأس كما يدبّ النمل في شقوق الأرض، فإذا ما اضطرتّه الظروف كي يرفع رأسه ليرى أحد القافزين فأنه لا يزيد على ان يزفر زفرة حسرة كبيرة ثم يعود ليطأطئ رأسه من جديد ويستمرّ في الدبيب.

كان الرئيس الأمريكي «جون كندي» يقول: «هناك مخاطر وتكاليف لكل خطوة وحركة، ولكنها أقل وطأة من مخاطر وتكاليف راحة السكون بلا حركة على المدى الطويل»⁽¹⁾.

إنّ الإنسان إذا رضي بالوقوع تحت وطأة التفكير بالمخاوف المتراكمة في باطنه، واستعذب السير مع التيار عملا بمقولة: «حشر مع الناس عيد» فليس له أن يستغرب الحلقة الفارغة التي يدور فيها أب عن جد..

ولك أن تسأل: هل يجب على الإنسان ان يخالف التيار الاجتماعي لكي يصبح متميزا؟ افلا يؤدي ذلك الى الفوضى إذا ما اختاره نصف الناس على الأقل؟.

1- رؤوف شبايك - 365 مقولة في النجاح - مؤسسة الأجيال - ص 19.

وأقول: أن مخالفة النظام الاجتماعي القائم على الشرع والقانون والأعراف، فيه مفسدة للفرد والمجتمع، وليس ذلك هو المطلوب لتمييز الإنسان في حياته، إلاّ اللهم إذا كان يريد ان يتمييز بالفساد والإفساد. وما رميت إليه هو ليس مخالفة التيار الاجتماعي، بل إيجاد طريق مختلف للسير به مع التيار..

كل الناس كانت تقطع الأرض بالسير أو السيارة، إلاّ أنّ هناك رجالاً حاملين كعباس ابن فرناس⁽¹⁾ والاخوان رايت⁽²⁾، أرادوا ان يقطعوها بالطيران، فاثمرت محاولاتهم إرسال المسابير الى أعماق الكون..

هؤلاء لم يسيروا مع التيار ولم يسيروا ضد التيار بل ساروا في طريق مختلف عن المألوف مع التيار فوصلوا قبل الناس، وساعدت إنجازاتهم الناس على أن يرتقوا..

أوليس اكتشاف الطيران محفوف بمخاطر الموت أو العاهات المستديمة؟
أوليس هؤلاء مخاوف باطنة كامنة فيهم أسوة بغيرهم؟.

نعم، هم كذلك، وما يميّزهم أنهم لم يرتضوا لأنفسهم أن يكونوا أسوة بالصندوقيين الذين يعملون بمقولة: «سر شهرا ولا تجازف فتقفز نهرا» طلبا للسلامة وخوفا من الندامة..

1- هو أبو القاسم عباس بن فرناس، توفي (884م)، وأنه جاوز الثمانين من عمره، يعده المسلمون أول طيار في اتاريخ، اخترع ساعة مائية سهاها «الميقات»، وهو أول من وضع تقنيات التعامل مع الكريستال، وصنع عدة أدوات لمراقبة النجوم.

2- هما أورفيل وويلبر رايت، مخترعان أمريكيان ينسب إليهما معظم المؤرخين اختراع أول طائرة والقيام بأول تجربة طيران ناجحة عن طريق آلة أثقل من الهواء في 17 ديسمبر 1903.

إنَّ الخوف عند القافزين آخر همومهم كما يقال، ليس لأنهم لا يخافون، فلا يوجد انسان لا يخاف، ولكنهم يستفيدون من شيء يجمده الآخرون وهو «الشجاعة».

كان أول رئيس وزراء للهند بعد استقلالها وهو «جواهر لال نهرو»⁽¹⁾ يقول: «النجاح يكون من نصيب من تحلوا بالشجاعة ليفعلوا شيئاً، لكنه نادراً ما يكون من نصيب الخائفين من العواقب»⁽²⁾.

نعم، المتميزون قلّة، لأنهم تحلّوا بالشجاعة للقفز من شقوق الخوف من المجهول.. يقول «براين تريسي»⁽³⁾: «اخرج من دائرة الأمان في حياتك، فأنت ستطور وتتقدم إذا رغبت في تقبل الشعور بعدم الراحة والقلق المصاحبين لتجربة شيء جديد»⁽⁴⁾.

يظن الإنسان أنه اذا دار مع الحشود حيثما داروا فإنه في «دائرة الإيمان» وهو ما أراه أنا وهماً كبيراً، تخيله الناس وصدقوه..

لنعد الى وحوش الظلام.. يظن الإنسان أنه إذا كان بين الناس فهو في دائرة الأمان واذا اختلى في الظلام فانه سيتعرض لاختطار غيبية جسام.. وكلنا نعلم ان تلك المخاوف ليست إلا اوهاماً من نسج الخيال.. وهذا يعني

1- ولد في 14 نوفمبر 1889 وتوفي في 27 مايو 1964، وهو أحد زعماء حركة الاستقلال في الهند، وهو أحد مؤسسي حركة عدم الانحياز العالمية عام 1961.

2- رؤوف شبايك - 365 مقولة في النجاح - ص 3.

3- مستشار وكاتب محاضر في مجال الطاقة البشرية والنجاح في الاعمال، ولد عام (1944م)، من مؤلفاته: قواعد وقوانين النجاح في دنيا الأعمال.

4- المصدر السابق - ص 12.

أن دائرة الأمان ليست الا حصانةً وهميةً بدورها، فالانتكال اليها والتعويل عليها، لا يضمن المرء ولا يغني عن الجوع.

لهذا أثني على مقولة «تريسي» التي يدعو فيها الى الخروج من هذه الدائرة الوهمية، إذا أراد أن ينتقل «من حال الفاقد الى حال الواجد» كما يقول الصوفية..

حكى لي أحد الأصدقاء، أنه في فترة من فترات حياته سلك مسلك الصوفية، واخذ يذكر الله تعالى في جميع حالاته، وقد اضطره السلوك الروحي الى الاعتكاف والعزلة عن الخلق ليتحقق بحقائق الحق كما يقول. يقول: في أحد مراحل السلوك كان عليّ أن أتحدّق بالقول والفعل والحال من خوفي من الله، إذ إنّ خشيتي من سواه أصبح يعدّ عندي شائبة من شوائب الإخلاص في مقام الخوف.

هكذا كان يحدثني، وقال: بدأت في الذكر والتسبيح في الضوء فاتحا عيني ثم اغمضتها واسترسلت بالذكر حتى تحققت من أنني في ذكري وحضور قلبي مع ربي، فتحت عيني وانتقلت إلى مكان مؤحش أظلم وضيق، فاخذت الهواجس والخواطر تتوافد عليّ، فبدأت بالذكر والتسبيح محاولا طرد هذا اللاشيء الذي يجيفني، فلم أفلح في البقاء هناك سوى دقائق معدودة، وهربت بعدها عدوا إلى حيث الضوء.. ثم أعدت الكرة تلو الكرة ولم أفلح في مواجهة مخاوف الظلام تلك.. ثم ابتكرت طريقة وهي أن أذكر في الضوء وأغمض عيني ثم اتلمسّ طريقي مغمضاً عيني محافظاً على اطمئنان قلبي الى حيث المكان المؤحش، ولم افلح ايضاً، فكلما اقتربت من ذلك المكان أخرج من

الأنس الى الوحشة.. وأخيراً اهتديت إلى طريقة أخرى، وهي أن اتجاهل الافكار والخواطر واعتبرها سراباً يتبخر بمجرد شعوري بها، وأصرف تفكيرى في ذكرى لربى، أى تشاغلتن عنها بسواها، فكان أن خفّ تأثيرها في نفسى بشكل مذهل وسريع، ومع تكرار هذه الطريقة مرتين أو ثلاث تمكنت من مواجهة تلك المخاوف والكوابيس وبت أجزاء بها، واهزء بالأوقات التي كانت ترتعد فرائصى بسببها.

إنّ النجاح يكون من نصيب من يحاول في المحاولة ويستمر بها بطريقة تفكير ايجابية. حكاية صديقى هذه، يعبر عنها بايجاز وبلاغة رجل عجزو كان يتحدث عن مشاعره مع حفيده، قال أنه يشعر وكأنّ داخل قلبه ذئبان يتصارعان، ذئب عنيف وحقود، والآخر وديع ومحب.

فسأله حفيده: من سيربح المعركة.

أجابته الجذ: الذئب الذي سأغذيه هو من سيفوز.

إنها لقاعدة مهمة جدا لمن يريد أن يكسر دوائر الأمان الوهمية، تلك الدوائر المكوّنة من مخاوف الفشل والخسارة.. إذ ما عليه إلا أن يصدّق بأنّها وهمية ووقتها لن تضره شيئاً.. فلا تجعل الفشل من ضمن الخيارات المتاحة. عليك هنا أن تستفيد من قوّة الخيال لتفسد أوهام الخيال نفسه، أي «داوها بالتي هي الداء».

يقول «نابليون هيل»⁽¹⁾: «ما يتخيله ويصدقه عقل المرء متاً، فأنه قادر

1- كاتب أمريكي متخصص في أبحاث الذات وتطوير النفس، ولد في فريجينا عام (1883م)، ومن أشهر مؤلفاته: قانون النجاح، فكّر تصبح غنيا، السلم السحري للنجاح وغيرها.

على تحقيقه»⁽¹⁾. وقد فعل ذلك كُل من الصوفي والرجل العجوز وكل المتميزين والقافزين، فافعل ذلك انت لتقفز مثلهم.



كان هناك شاب ولد في عام 1863م بمزرعة لأسرة بسيطة في «ديربورن» بولاية «ميتشجان» الأمريكية وكان الابن الأوّل من بين ستة أبناء، التحق بالمدرسة ولكن لم يكمل تعليمه حيث ترك الدراسة وهو في الخامسة عشر من عمره، ليعمل في مزرعة والده، ولكن لم تكن الزراعة هي الطموح الذي يشغل باله بل شغلته الآلات والميكانيكا، وهكذا شقّ طريقه في ورشة ميكانيكية لمدة ثلاث سنوات، وشيئا فشيئا أصبح اسماً غير عادٍ بين الرجال القافزين من شقوق الطين وذلك عندما جعل السيارة في متناول الجميع وليست وسيلة لتفاخر الرجل الغني فقط، إنّ «هنري فورد» مؤسس شركة فورد لصناعة السيارات، فعقب محاولتين فاشلتين لتأسيس شركته، تمكّن من النجاح وقام بتأسيس الشركة عام 1903م. وقد سئل «فورد» عن سرّ نجاحه رغم نشأته الفقيرة، والعوائق التي واجهته فقال: «العوائق هي تلك الأشياء المرعبة التي تراها حين تصرف نظرك عن هدفك»⁽²⁾.

إنّ سرّ القفز عند «هنري فورد» يتلخّص في نقطتين :

الأولى : تركيز التفكير على الهدف الذي تريد الوصول اليه.

1- كاتب أمريكي متخصص في أبحاث الذات وتطوير النفس، ولد في فريجينا عام (1883م)، ومن مؤلفاته: قانون النجاح، فكّر تصبّح غنيا، السلم السحري للنجاح وغيرها. ص 4.

2- المصدر نفسه - ص 6.

الثانية :عدم الانزلاق في مستنقع الوسوس والمخاوف من الفشل .
أنّه يهمل بعبع المخاوف التي تتكدس في النَّفس الإنسانية، ولا يرى إلا بقعة الضوء التي صمم على الوصول لها مهما كان النفق طويلا، وقد أفلح بذلك، في الوقت الذي يتصرّف فيه أناس آخرون بعكس هذه القاعدة تماما، فترى طنابل المخاوف من الخسارة أو فزاعة الأقدار تتناوشهم ذات اليمين وذات الشمال، فيعميهم ذلك عن رؤية الأهداف التي يحلمون بها، وتمرّ بهم الأعوام وهم راكدون وكأنّ الزمان متوقف عندهم.



على أنّي أودّ التذكير هنا إلى أمر أظنه هاما وهو: ضرورة أن يعي الإنسان الفرق بين الشجاعة والتهور، إذ بالأولى تتحقّق القفزة ويكُلّل الفائز بأكليل الغار، وبالثانية تتحقّق النكسة ويهوى الفاشل على أم الرأس .
المسألة ليست مجرد التحرر من سطوة المخاوف التي تعيق تقدّم الإنسان بل هي مقرونة ف الوقت ذاته بهدف واضح وخطوات مدروسة واحتياطات لتجاوز العقبات.

المعروف أنّ ساحات المعارك هي الميدان الحقيقي المباشر لاختبار الفرق بين الشجاعة والجبن والتهور أيضا، إذ في ميدان القتال لا ضمانات فيما أن تكون أو لا تكون، وعلى الرغم من أنّ تلك الميادين احتضنت وتحتضن الآلاف والملايين من المقاتلين إلا أن من يخلّد التاريخ ذكرهم يكاد يعد على أصابع اليد في كلّ أمة، فلماذا ذلك؟

ألا يواجه الجميع الموت بنفس المقدار؟ فلماذا إذاً يخلّد ذكر القلائل

وتظمر أسماء الملايين في طيّات النسيان تحت التراب؟.

عنتره بن شداد العسبي، هذا العبد الذي ذاع صيته شرقا وغربا في ساحات القتال، هو بالفعل نموذج مثالي للقافرين من شقوق الطين، فعلى الرغم من جميع الظروف الاجتماعية التي كانت تكبله كما تكبل أمثاله من أبناء الإماء والجواري، استطاع أن يفعل ما يجعل اسمه جنبا الى جنب أسماء سادة الفرسان. سُئل يوما عن سرّ انتصاراته المتكرّرة واذا كان يخاف في أرض المعركة ام لا، فقال: أنا أحمل خوفاً معي من لحظة خروجنا للقتال إلى لحظة رؤيتي للعدو وقتها، وقتها لا اعرف شيئاً اسمه الخوف وما يملكني هو أن اختار عدداً من شجعان القوم وفرسانهم ممن أرجح مقدرتي في التغلب عليهم، لاهجم عليهم واحداً تلو الآخر، فأنّ الاتباع يفرون إذا قتل فراسهم، ثم إذا هجمت أصرخ في وجه عدوي بكلّ ما اوتيت من قوة لارهبه وأفقدّه جزءاً من شجاعته، والأهمّ من ذلك هو أني لا أهجم إلا بعد أن أجد لي منفذاً للفرار ومعاودة الكرة مرة أخرى، فالقتال لعبة كر وفر.

هذه هي فلسفة الانتصار عند عنتره، وهي تلخص في نقاط ثلاث:

الأولى: اختيار النقاط الرئيسية.

الثانية: استخدام قوة الجانب المعنوي.

الثالثة: تحديد مخارج الهروب.

والأهم من ذلك كلّ أنّه كان ينسى خوفه ويركّز على هدفه في الوقت المناسب. فالشجاعة لا تعني الاندفاع الأعمى في أرض المعركة فذلك هو التهور بعينه، وإنّما تعني استخدام جميع الوسائل المتاحة لتحقيق أفضل

التتائج بأقل الخسائر..

بهذه الأساليب من المناورة تجد القافزين حققوا انتصاراتهم على مخاوفهم
وعلى العقبات التي واجهتهم في الحياة، فحذق لهم أن يفوزوا بالمجد الذي
طمحوا فيه.

سراب القمقم الزجاجي

«الفشل أفيون النفوس».

في أحد الأيام كنت جالسًا وأنا أنظر الى حديقتي من خلف زجاج الشباك، غارقا في تأملاتي، فجاءت نحلة ودخلت من باب الغرفة وأخذت تحوم فيها، كان من الطبيعي أن تلفت انتباهي، ثم حاولت الخروج ويبدو أنها ظلت الطريق فاتَّجَّهت إلى الشباك بدل من أن تذهب إلى الباب، أخذت تلك النحلة تضرب زجاج الشباك مرات ومرات لتحاول الخروج.. وقتها قلت لها: مسكينة أيتها النحلة، لأنك لا تعلمين أن جدارًا زجاجيا شفافا هو ما يحول بينك وبين الحرية.. عبثًا تحاولين أيتها النحلة من هذا الاتجاه.. ليس لك إلا أحد خيارين: إما أن تكسري الزجاج وما أراك تستطيعين ذلك وإما أن تستوعبي ذلك وتغيري اتجاهك لتبحثي عن مخرج آخر.

بعد فترة كنت أهتم بالخروج من أحد الأسواق التجارية، لم انتبه إلى أن أمامي بابًا زجاجيًا، وبسبب عدم تركيزي صدمت ذلك الباب.. فعدت الى الورا غيرت مساري سريعًا باتجاه باب الخروج، وخلال خطواتي

للخروج تذكرت حديثي في سرّي مع النحلة فتبسمت ثم ضحكت.. ثم قلت في نفسي: أيتها النحلة، يبدو أنّ شأني لا يختلف عنك كثيرا، فهانذا أضرب جدار الزجاج ولا أستطيع كسره، فاضطر لتغيير مساري كما فعلت أنت.. ولكن لا، هناك فرق وهو الزمن.. لقد استغرقت وقتا طويلا ودورات عديدة لتتهدي الى باب الخروج، وأما أنا فلم أخسر من وقتي الاّ بضع ثوان.. إنه فرق الزمن أيتها النحلة.

في حياة الناس الكثير والكثير من الجدران الزجاجية التي تقف كحواجز خفية بينهم وبين أحلامهم وآمانهم.. ومن الناس من يستغرق زمنا طويلا قبل أن يعرف ما يمنعه، وغالبا ما يكون الوقت قد فات للبحث عن طريق آخر لتحقيق الحلم، فهم كتلك النحلة بل اضل سبيلا، وأما القلّة فأنّ العوائق تحفزهم فوراً لالتماس المخارج الأخرى.

في تصوري أنّ الفشل بما يدل عليه من معاني الخسارة في الوقت والجهد والمال وبما ينطوي عليه من ألم أو حسرة أو ندم او حتى غضب.. هو احد الجدران الخفية التي وقع ضحيتها معظم الناس.

إنّ الكثيرين - وربما أنا منهم - تكاد احتمالية الفشل في أي شأن من شؤون حياتهم تسبب لهم الخوف وربّما الهلع، فأنيّ طالب لا يخاف من احتمال الفشل في الامتحانات النهائية، وأيّ امرأة لا تخاف من أن تفشل تجربتها في الزواج أو بالحياة الزوجية السعيدة، وأيّ تاجر لا يخاف ان يخسر صفقته، وأيّ مريض لا يخاف أن تفشل عملياته... يكاد الخوف من الفشل يلازم حياة الجميع صغيرهم وكبيرهم، وتكاد هواجسه لا تفارق حلماً من الأحلام او هدفا من الأهداف..

لهذا فإنّ صورة الفشل في أذهاننا كئيبة، ورهبتنا منه مستبطنة، وهي تتعاضم في نفوسنا مع كلّ تجربة فشل مريرة نمرّ بها في حياتنا، إذ تصبح تلك التجربة وكأنها نقطة إرساء تستحضر في نفوسنا وأذهاننا لحظات خيبة الأمل بتغيير واقع الحال.. على سبيل المثال، لو اشترى أحدهم سيارة بهدف أن يعزز دخله اليومي ويحسن من مستوى معيشتة، وإذا بالسيارة تسرق أو تتعرّض الى حادث اصطدام أو أن العطلات تهجم عليها وكأنها على موعد مسبق معها، فما أن يصلح عطلا ويقول: «عسى أن تكون هذه خاتمة الأحزان فلنعمل لنعوّض ما فات ثم نرفع من مستوانا»، فإنّ عطلين أو ثلاثة يباغتونها ويعيد صاحبنا الكرة، حتى تصبح السيارة وسيلة لاستهلاك الموجود، ويصبح هدف صاحبنا البقاء على الكفاف ولا يكاد يناله بسبب تراكم الديون، بعد أن كان يحلم بالرخاء.

مثل هذا التجربة المريرة لاشكّ أنها تزرع في نفس هذا الرجل كلّ أنواع الشك في النجاح مستقبلا في أي مشروع يخصّ السيارات، وهكذا ومع كل يتراكم الإحساس بالحظ السيء ويتعاضم التشاؤم..

كلمة من أحدهم بالتخوف فيبدأ على أثرها تفاعل متسلسل من التدايعات فيهدمون في لحظات كل ما بنوه في ساعات، وأن لم يهدموه وقاموا فأن ما خططوا له ينسى بعد الخروج من باب الغرفة أو على أبعده تقدير بعد الخروج من المنزل، وهكذا دواليك، فتمضي الشهور والسنون وهم على أحوالهم التي تركتهم عليها آخر مرة، يقولون ما لا يفعلون، ليس لأن الاسباب المادية تمنعهم فحسب بل لأن خوفهم من تكرار تجربة الفشل تشدهم الى حالة اللاتقدم واللاتغير ..

يامكاني هنا أن أقول بأن قانوننا أشبه ما يكون بقانون الجاذبية يفعل فعله في الخفاء، فعلى قدر ما تستبطن النفس من الاحساس بالفشل، فان الإنسان ينجذب نحو اللافعل.

للفشل عند الناس أسماء عديدة، اشهرها، «الحظ السيء» فترى المنكوب يلعن حظّه السيء ويلومه على كل صغيرة وكبيرة، حتى لو لم يجد مقصّ الشوارب او مقراضة الاظافر.. وكلما آمن الإنسان بأنه ذو حظ سيء أو فاشل في حياته، أو حتى في جزء من حياته، واستخدم هذه اللفظة أو استحضر معناها، فإنه يضاعف من قوة الشد على النفس والعقل كي لا يتخذ أي خطوة جريئة يمكن أن تؤدّي الى التحرر والانطلاق في أرض الله الواسعة، اذ قانون «الفعل ورد الفعل» الذي ينصّ على أن: «لكلّ فعل ردّ فعل يساويه بالقدر ويعاكسه بالاتجاه» ينطبق على هذه الحالة الإنسانية كإطباقه في ميكانيك الحركة الفيزيائية تماما.

أنّ الأحساس بالفشل أو بالحظ السيء هو أشبه ما يكون بالجدار الزجاجي الذي يمكنك من رؤية الأحلام والأمال والطموحات من خلاله، لأنه لا

يجب الرؤية، ولكنك عبثاً تحاول اختراقه، لأنك مهما حاولت فمثلك مثل النحلة التي لا تستطيع كسر زجاج النافذة. فهلاً تبحث لك عن مخرج بديل كما فعلت النحلة؟.

مشكلة الإحساس بالفشل أو الاعتقاد بالحظ السيء أنها تستوعب كل جهات الإنسان واتجاهاته، فتحيط به كالقبة الزجاجية.. أينما اتجه وأي قرار يتخذ فإنه سيجد نفسه محاصراً بذات الممانعة، وما يحصل عليه هو النتيجة نفسها مهما تعددت صورها.

أوشكنا على الوصول إلى حالة من اليأس، اذ مع ما بينا هنا، فلا مهرب ولا نجاة إلا الاستسلام والرضا بالمقدر والمقسوم كما يقولون.

نعم، هذا ما اجمعت عليه معظم النفوس في مختلف الشعوب والأمم.. فلا ترى حضارة من الحضارات إلا ونسبة لا يستهان بها من أهلها تلعن الحظ العاثر وتنظر بعين الحسد وربّما بأنفه وإذنه أيضاً اذا ما شمت أو سمعت بنعمة تصيب هذا او ذلك من الأقران، وأما الاثرياء والمتنفذون وبشكل عام الناجحون في أي مجال، فلا يحسدون وكأنهم من جنس آخر..

يضطرنّا هذا لالى أن نطرح السؤال الأهم وهو: كيف استطاع الناجحون القفز خارج القمقم الزجاجي، فبتنا أبعد ما يكون عنهم على قرب المسافة بيننا وبينهم؟ والجواب يكمن باعادة النظر في «حقيقة الفشل» ودوره في الحياة الإنسانية..

هذه النقطة بالذات هي ما يحتاج الإنسان أن يتوقف عندها طويلاً، فلربما تكون نقطة الانقلاب والتحوّل في حياته من البؤس والشقاء الى

السعادة والرخاء.

في تصوري أنّ مفهوم «الفضل» هذا ظلم ظلماً كبيراً كما ظلم مفهوم «الموت»، إذ بالرغم من أنّ غالبية الناس سواء أكانوا من اتباع الرسالات السماوية أم كانوا من اتباع المعتقدات والطقوس الوثنية يؤمنون بشكل أو بآخر بأن هناك حياة أخرى بعد هذه الحياة.. وخير مثال على ذلك أهرامات الجيزة وتمثيل اباطرة الصين.. إلا ان الإنسان في كل مكان يخشى الموت ويتجنبه وكأنه الفناء الأبدي.

أنّ تفهم شيء، لكن ان تتعايش وتشعر شيء آخر..

ما يفهمه الناس أنّ هناك حياة أخرى ولكن لانهم لا يرونها رأي العين، ولأن المشاعر تتعشق مع المحسوس والملموس، فأن الإنسان يشعر بهذه الحياة أكثر من تلك الحياة، وفي باطنه خشية من استبدال المعلوم بالمجهول الذي قد يكون مطابقاً لما يعتقد أو ربّما يكون مخالفاً، إذ في قضايا الغيب لا شيء مضمون عند النفوس. ولما كان الإنسان يتعايش مع ما يشعر به أكثر ممّا يتعقله، كان تأثير تلك المشاعر أكبر في حياته مما يستوعبه عقله.

فقط قلة من الناس قفزوا على هذا المفهوم واستطاعوا أنّ يستشعروا ان «الموت متمم الحياة» كما يقول الشيخ محمد الكسنزان⁽¹⁾، وأن يعقلوه عقل وعاية لا عقل رواية وهؤلاء هم الذين أخبر عنهم تعالى في قوله جل جلاله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ

1- علم من أعلام العراق والعالم الإسلامي، وعلم من أعلام التصوف الإسلامي وهو يترأس مشيخة طريقة صوفية اسمها الطريقة العلية القادرية الكسنزانية.

يُرْزُقُونَ. فَرَحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١﴾.

نعم، يستطيع جميع الناس تفهم هذه الحقيقة، لكنهم لا يستطيعون أن يتعايشوا معها بسلام، إلا أنبياء الله وأولياءه والصالحين من عباده سبحانه وتعالى. ولهذا فان عقول الناس تكاد تكون مغلفة بغلاف خاص يجعلها تتجاهل الموت أو تتجنب حتى التفكير به.

لو نظرنا لمفهوم الفشل وحقيقته، فسنجد أن الناس اخطؤوا في فهمه وفي التعامل معه أيضا.. فالفشل لا يعني الخسارة المطلقة والمتكررة أبدا، وهذا هو لبّ الحلّ والمشكلة في آن معا.

بواطن بعض الناس تتعامل مع الفشل على أنه خسارة ما بعدها خسارة، وأنّ التجارب الفاشلة علامة على الخطأ الذي لا يغتفر، وأنّ ذلك ليس مفترضا ان يحصل.. والواقع أن هذه الفهم مجرد أوهام لا صلة لها بحقيقة الفشل؛ لا من قريب ولا بعيد.

من ينظر إلى الفشل على أنه سبب للآلام الناجمة عن التفريق بين المرء وأحلامه كمن ينظر إلى الموت على أنه سبب للآلام الناجمة عن التفريق بين المرء وأحبابه.

كلاهما نظرتان قاصرتان لا تأخذان من حقيقة هذين المفهومين إلا جانباً يسيراً من مضمونها الواسع المتسع. وبداية التخلص من مقم الزجاج لا

1- آل عمران : 169 - 171.

تحدث إلا بالتوقف الفوري عند هذه النقطة، أعني نقطة فهم معنى الفشل على ما هو عليه، بكل ما يتضمنه من خصائص وفوائد وخواص قبل أي شيء آخر، اذ وكما يقال: «كل ما بني على باطل فهو باطل».

إذا، دعنا نتحرك معالنرى ما هي حقيقة الفشل وما هي خصائصه وفوائده إن وجدت.

في عام 1848م كان هناك شاب يافع يقفز فوق السكك الحديدية في ولاية ميلان الامريكية، ينادي باعلى صوته على الصحف التي يحملها بين يديه لبيعهها. لم يمض وقت حتى تمكن لشده اجتهداه وحماسه من العمل كموظف في إرسال البرقيات في محطة السكة الحديدية ومنها كانت انطلاقته الحقيقية، حيث نظر إلى الروتين والبطء الذي يؤديون فيه أعمالهم فقرر أنه لا يريد أن يكون كغيره، مجرد موظف عادٍ يمكن استبداله في أي وقت وبغيره، أي أراد أن يقفز خارج السرب، فانطلق يفكر بطريقة تختلف عن تفكير أقرانه التي اقتصرت على المشاغل الحياتية الاعتيادية.. فكان أن أثمرت أفكاره اختراع لأول آلة تلغرافية ترسل آليا، وفي عام 1876م تمكن من أن يؤسس لنفسه مختبرا خاصا به، وفيه تمكن من اختراع آلة برقية آلية تستخدم خطأ واحداً في إرسال العديد من البرقيات عبر خط واحد، ثم اخترع الكرافون الذي يقوم بتسجيل الصوت آليا على أسطوانة من المعدن. وبعد ذلك بسنتين كان الاختراع العظيم الذي تدين له الإنسانية جميعا إلى يومنا هذا، وإلى ما شاء الله من عمر الكون وهو «المصباح الكهربائي» وأعقب ذلك اختراعات كثيرة وصل عددها بحسب براءات الأختراع إلى أكثر من (1090) براءة اختراع، وكان ختام سجله أن وصل إلى درجة عُين فيها

مستشار الرئيس الولايات المتحدة الأمريكية.

تخيل، من بائع جرائد فقير الى مستشار رئيس.. كل شيء ممكن في هذه الدنيا.. كل شيء.

إنه المخترع الكبير «اديسون»، فلننظر الآن إلى نظريته في الحياة، وهل كان طريقة لهذه المرتبة مفروشة بالورود ام أنه تحمل من أجل ان يقفز هذه القفزة الكبيرة أصناف الصعاب وألوان المتاعب..

بداية، يتميز اديسون بكونه ابن بار بوالدته فخورا بها على الدوام، ويبدو أنّ والدته كانت من تلكم النساء القافزات نسبة لبيئتها الاجتماعية التي كانت تعيش فيها، يحدثنا اديسون عنها فيقول: «إنّ أُمِّي هي التي صنعتني، لأنها كانت تحترمني وتتقني، أشعرتني أنّي أهم شخص في الوجود، فأصبح وجودي ضروريا من أجلها وعاهدت نفسي أن لا أخذها كما لم تحذلني قطّ». هذه هي القاعدة الضرورية لبناء أنفسنا وأولادنا، ان نشعر بهذه الثقة وهذه الأهمية في الحياة، وأن نجعل جميع المحيطين بنا او المقربين بنا يستشعرون حرارة هذه الثقة ويتحسسون أمانها.

إنّ الطريقة التي ربت بها أمه، وطريقة تقبله لها، جعلته يدرك مبكرا حقيقة أن الفشل ليس إلا موجة من أمواج الدنيا، فأما أن تعلوها وإما أن تعلوك، وقد قرر أن يكون الأولى.

في طريقه لكي يقفز حاول أكثر من عشرة آلاف مرة أن يخترع المصباح.. هل تعلم ما معنى أن يصبر شخص ليجرب عشرة الالف تجربة ليصل إلى شيء لم يكن متأكدا أنه قد يصل اليه..؟.

إنه الصبر وطول البال والثقة بالنفس وعدم اليأس والجهد المضني
والتضحية الكبيرة بالوقت والمال..

لم ييأس من فشل التجربة الأولى ولا الثانية ولا العاشرة ولا آلاف ولا
ولا.. وربما لو لم يصل لاستمر يحاول ألى أن يموت.

لم يتوقف لأنه لم يكن يؤمن بوجود شيء اسمه الفشل نهائيا، وكل
المحاولات التي نفذها كان يسميها «تجارب لم تنجح» وكان يقول: «لقد
تعلمت عشرة آلاف طريقة خطأ لصنع المصباح»..

لقد نظر الى الفشل من الجهة الأخرى، واعتبره عملية تعلم للطرق الخطأ
كي يتجنبها..

هناك تطبيق شائع عند بعض الامهات وهو أنهم إذا رأين الطفل الصغير
يحاول أن يلمس إبريق الشاي الساخن، ولا يمتنع، فأن إحداهن تتركه
يلمسه على حذر ومراقبة، لكي يتعلم الصحّ من الخطأ الذي يرتكبه، وهي
وان كانت تجربة قاسية وربما مرفوضة عند الكثيرين إلا أنّها تأتي بشمارها
بحسب الامهات والجدات.

وهكذا كان اديسون، يعتبر الفشل وسيلة تعليم وبالتالي فلا فشل في
حياته، فإنه في فشله ناجح وفي نجاحاته ناجح، وكل ذلك يضاعف من ثقته
بنفسه ويعزز إمكاناته حتى وصل إلى ما وصل اليه. وقد اشتهر عنه أنه كان
يقول: «تحلى بالإيمان وانطلق»، وأيضا: «الآمال العظيمة تصنع الأشخاص
العظماء» وما أروعها من كلمات.

حين كانت تواجهه الصعاب، وتغلق في وجهه كل الأبواب كان يردد

مع نفسه بصوت مرتفع: «دائماً هناك طريقة أفضل.. دائماً هناك طريقة أفضل» وهو بهذا يستحضر كل الطاقات التي من شأنها أن تلهمه الخيار الافضل والمخرج الأكيد.

يقال إنه حين أخبر «أديسون» مكتب براءات الإختراع في واشنطن أنه يعمل على اختراع مصباح يعمل بالكهرباء نصحه المكتب بعدم الاستمرار في مشروع كهذا وكتبوا له خطاباً جاء فيه: «إنها بصراحة فكرة حمقاء حيث يكتفي الناس عادة بضوء الشمس».

هذه كانت طريقة المجتمع العلمي المسؤول عن براءات الاختراع في التفكير، فما كان من أديسون إلا أن اتخذ من (التفكير خارج الصندوق) وسيلة له ليقفز خارج قمقم الفشل.

ولنتوقف عند لحظة وفاته عام 1931م عن عمر يناهز 84 عام، حيث اطفئت جميع أنوار ومصابيح أمريكا، ليرى الناس جميعاً أن العالم من قبله كان هكذا.

نحن حين نقول بأنّ الفشل مجرد أوهام، هذا الذي نعنيه.. لا يوجد تجربتان فاشلتان تتكرران بنفس الطريقة، فلا ينبغي القياس على تجارب الفشل البتة إلا من باب الاستفادة من الخطأ لعدم التكرار.

يقول شكسبير: «إن شكوكنا تخوفنا وتجعلنا نخشى الأشياء التي كان بإمكاننا أن نكسبها».

إنّ هذه الطريقة في التفكير والتعامل مع جميع مجربات الحياة قادرة أن تحوّل جميع الخسائر إلى أرباح.

إذا، دعنا نقرأ معا أقوالاً محفزة من أناس تكلمت مساعيهم في تفجير فقاعة وهم الفشل:

- ❖ الفشل ما هو الا فرصة للبداية مرة أخرى بطريقة أنضج.
 - ❖ اذا حاولت ان تتغير ولم تتغير فانت لم تفشل بل سرت في الطريق الخطأ، اكتشف ذلك الطريق وتحقق منه واتركه الى طريق آخر، وانت تتحقق منه لكي لا تسير في ذات الطريق الخطأ مرتين.
 - ❖ من أجل أن تنجح عليك أن تجرب الفشل لكي تعرف ما يجب عليك عدم فعله في المرة القادمة.
 - ❖ لا تهرب بعيداً من الفشل بل ادرسه جيداً واكتشف موجوداته الخفية.
 - ❖ خلف كل رجل ناجح هناك الكثير من السنين الفاشلة.
 - ❖ أفضل نجاحاتنا تأتي بعد أسوأ إخفاقاتنا.
 - ❖ فقط الذين لا يخافون من الفشل يحققون النجاح.
 - ❖ سر النجاح يكمن في معاودة النهوض كلما سقطنا.
 - ❖ أستطيع أن أتقبل الفشل، لكن لا أستطيع أن أتقبل عدم المحاولة.
 - ❖ النجاح هو التنقل من فشل لآخر دون فقدان الأمل.
 - ❖ لا أعرف مفتاح النجاح، بينما مفتاح الفشل هو محاولة إرضاء الجميع.
- وفي هذا السياق أتذكر مقولة للامام علي بن ابي طالب يقول فيها: «رضا الناس غاية لا تتبغى». وقيل: «إذا ما كنت تنتظر مديح الآخرين، فإنك سوف تصبح صيداً سهلاً للخديعة»⁽¹⁾. فعليك ان تحدد هدفك وان تسعى

1- د. ابراهيم الفقي - أسرار قادة التميز - مركز الأصيل للطبع والنشر - 2001 - ص 15.

لتحقيقه، مقدرًا ناصيحيك أو ناقدك، دون أن تجعلهم يشغلوك عن وجهتك التي قررت الوصول لها، ففي النهاية هي حياتك وقراراتك أنت.

❖ ابتعد عن الأشخاص الذين يحاولون أن يبطوك.

❖ يقول احدهم: «عندما كنت صغيراً، كنت ألاحظ أن عشر أعمال

كانت تبوء بالفشل، لذا كنت أعمل عشر مرات إضافية».

❖ عندما تقوم بأي عمل اطرح من رأسك فكرة الفشل، فقط ركز على

النجاح.

❖ التفكير بعواقب المحاولة مهم جداً، فكن من الذين يفكرون بجوائز

النجاح ولا تكن من الذين يفكرون بعواقب الفشل. أي تفاعل ولا تتشائم.

❖ إذا كانت لديك الرغبة في النجاح فقد حققت نصف هدفك، وإذا لم

تكن لديك هذه الرغبة فقد حققت نصف فشلك.

❖ الناجح يستفيد من أخطائه، ثم يحاول مرة أخرى بطريقة مختلفة.

❖ لا تجعل الخوف من الخطأ يحجمك عن المحاولة.

❖ كل مشكله أهلها تصبح قاعدة لحل مشكلة أخرى قد تواجهني.

❖ إذا لم ترتكب أي خطأ من المحتمل أنك لا تقوم بأي شيء.

حاول قراءة ما ذكرت لك هنا أكثر من مرة ان تطلب الأمر عسى ان

ترسخ هذه الطريقة في باطنك.. اقول اعط نفسك وحاول أكثر من مرة ولم

اقل عشرة آلاف مرة كما فعل اديسون..



على أننا واستكمالاً لمفهوم الفشل نجد من الضروري الإشارة إلى حالات ثلاث يمكن أن نسمى الإنسان فاشلاً بسببها :

أما الحالة الأولى: فهي عندما يستسلم الإنسان، أي يترك المحاولة ويركن إلى التذمر من الحظ العاثر.. فهذا هو الإنسان الفاشل بامتياز، وهذا هو الذي لن يخرج من القمقم الزجاجي مهما طال الزمن أو قصر.

وأما الحالة الثانية: فهي عندما يدرك الإنسان أن محاولته خاطئة ويستمر في تكرارها ذاتها مرة تلو الأخرى، فمثل هذا الإنسان لم يستفد من الوقوع في الخطأ بل هو أصر عليه، والمصر على الخطأ يقع بما اسميه الفشل المركب.

وأما الحالة الثالثة: فهي التي يتجاهل فيها الإنسان معرفة أسباب الخطأ ويستمر يحاول بدون تعقل أو تفكير أو تقدير، هذه الحالة أنا اسميها «الفشل المتهور». نعم فحين لا يكون هناك أي خيار أو ترجيح يمكن اللجوء إلى هذه الحالة مع مراقبة النتيجة واختيار الأصلاح في المرة التالية.

إنّ الحياة ليست لعبة نرد، نرميها كيفما اتفق وعسى أن تصيب، وإذا أصابت مرة من ضمن أنها ستصيب مرتين..



ختاماً أقول: إنّ الإنسان إذا ما أراد أن يقفز خارج قمقم الفشل الزجاجي فعليه أن يصدق أنّ القمقم عبارة عن وهم ليس إلاّ وأنّه يقف خارجه بالفعل أسوة بالقافزين، فإنّ رسخ هذا الاعتقاد في عقله ونفسه وفي مختلف حالاته فما هي إلاّ واحدة كلمح بالبصر وسيرى نفسه واقفاً جنباً إلى جنب الخارجين من ذلك الصندوق، ينظر معهم إلى المحتجزين بأسوار أو هامهم.

بوابة صانعو المصائر

«إذا كان لديك ثمار الليمون، فعليك
بصنع عصير الليمون».

(1)

لو قلت لك إنّ هناك صنفاً من الأشجار يبيض كما تبيض الطيور، وأن هناك صنفاً من الفئران تلد الجمال هل كنت مصدقي؟ قطعاً لن تصدقني وسيكون جوابك: مستحيل ذلك، قد تحدث حالة شاذة أو غريبة كتلك الطفرات التي تحدث هنا أو هناك، ولكن أن يكون صنفٌ من المخلوقات وبهذا الوصف فهو امر مستحيل بل هو من سابع المستحيلات.

ولكن ماذا لو قلت لك مؤكداً: باني رأيت ذلك بأمر عيني، هل كنت ستصدقني؟

أظنّ أنّه يتوجب عليك ان تشكك بسلامة عقلي، وان لم تفعل ذلك فاسمح لي أن اشكك أنا بسلامة عقلك.

لم ينته الأمر بعد.. ماذا لو اضفت لكلامي: أي رأيت ذلك في الحلم؟

1- جنرال وقائد سياسي وكاتب روماني ولد عام 100 ق.م وتوفي عام 44 ق.م وهو أول من أطلق على نفسه لقب: إمبراطور.

لاشك وقتها أنك ستبتسم ويزول استغرابك.. لماذا؟ لأننا جميعاً موقنون بأن الأحلام عالم اللامستحيلات.. عالم لا يعترف بالمستحيل.. ولا يقر بوجوده أصلاً.

هذا عن الأحلام في حالة النوم، فماذا عن الأحلام في حالة اليقظة؟
هل ينطبق عليها قانون اللامستحيل هذا أم لا؟
لنرى معاً..

في أحد أفقر أحياء مدينة جدة نشأ «مهند جبريل أبو دية» كطفل عادي أسوة ببقية الأطفال.. ولكنه كان يملك شيئاً ما في داخله أثار استغراب أصدقائه بل وسخريتهم، كان يردد امامهم دائماً بأنه سيصنع يوماً ما شيئاً لم يصنعه أحد غيره.. ولكن كيف؟.. ومتى؟.. ولماذا؟.. لم يكن طفل السابعة يملك جواباً على أي من هذه الأسئلة آنذاك.. فأخذ يسأل عن أشياء غريبة بحثاً عن الأغرب الذي لم يسبق ان فكر فيه أحد سواه..

كان مهند يحلم ان يصنع شيئاً يستغرب أصحاب العقول حين يسمعون به، وكان يحث الخطى في سبيل تحقيق حلمه الغريب، وكلما كان اصداقاه او أحد معارفه يستهزىء به فأن إصراره يزيد وإيمانه بها يسعى للوصول له يتضاعف.

حال مهند في هذا تنطبق عليه مقولة مخرج الأفلام الأمريكي «ستيفن سبيلبرج»: «أنا لا أحلم في الليل، أنا احلم طوال الوقت، أنا أحلم لكي أعيش». وكأنه كان يحلم بأن يقفز فوق مستوى العالم.

صنع مهند العديد والعديد من الأجهزة الغريبة في مصنعه الذي كان

بكلّ بساطة سطح منزله المتواضع، بعيداً عن أعين الفضوليين والمستهزئين. وفي يوم من الأيام سمع عن مسابقة حكومية للابتكارات، فأخرج أحد أجهزته الغريبة وقدمها إلى المسابقة، ليفاجأ طالب الابتدائية أنّه الأول في هذه المسابقة التي كان المشاركون فيها من الجامعة والثانوية. وهكذا ابتدأ مشوار الألف ميل بالنسبة له في طريق تحقيق حلمه بهذه الخطوة، ثم أكمل مشواره وفاز بتلك المسابقة بالمركز الأول لثلاث سنوات متتالية.

إن الأحلام تحتاج الى المثابرة والعمل الجاد المتواصل لكي تتحقق، أنّها تحتاج لأناس لا يؤمنون باليأس أو التهاون أبداً. فالنجاح كما يقول كثيرون ومنهم «كولين باول» هو «حصيلة الإعداد الجيد، والعمل الشاق، والتعلم من الأخطاء والفشل»⁽¹⁾.

إنّ الناس الذين حققوا نجاحات عظيمة هم الأشخاص الذين كانوا يعملون في الوقت الذي كان فيه الآخرون نائمين.

وبعد ذلك اخترع مهند إثنين وعشرين جهازاً في مجال التقنيات الفيزيائية والروبوتات. واستمر مسرعاً نحو هدفه حتى تمكّن من المشاركة في فريق علمي سعودي لصناعة المسرعات النووية بمدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية، وأنشأ شركه للإنتاج الإعلامي العلمي وشركه للإلكترونيات المتخصصة وأنشأ أكبر شبكة مواقع على الانترنت للعلوم الفيزيائية باللغة العربية، وتواصلت انجازاته فألّف ثلاثة كتب مهمة في مجال العلوم، وأنشأ الفرع السعودي في الجمعية الدولية لطلاب الفيزياء.

1- جنرال ورجل سياسة امريكي.

ثم كان الأنجاز الأكبر - لحد الآن على أقل - فحين بلغ الخامسة والعشرين من عمره استطاع ابتكار «غواصة» بمواصفات عالمية، أطلق عليها اسم «صقر العروبة» وهو الاسم الذي اختاره مهندس لاختراعه الأول الذي كسر به حاجز الغوص العالمي بعمق يربو على (6525 مترا) تحت الماء ومتفوقة على مثيلتها اليابانية «شينكاي» التي لا تستطيع الغوص على عمق أكثر من (6500 متر).

الغواصة الجديدة سوف تتمكن من استكشاف المكونات الطبيعية تحت عمق أكثر من 6500 متر، ومنها الشقوق البركانية والأخاديد والكهوف التي قد تحتوي على منابع للبتروول أو محتويات من المعادن، حيث يحتل تواجد أحياء بحرية غير مكتشفة في تلك الأعماق، بالإضافة إلى تمكين فرق الإنقاذ من انتشال الغواصات الغارقة في قعر المحيط.

هذه ثمرة من ثمرات الاحلام التي لا تصدق..

الأحلام التي هي أقرب الى المستحيل منها الى الواقع..

أنها تشق طريقها الى الواقع حين تجد الشخص المناسب.. الشخص الذي يتمسك بها ويسعى في مسارات الحياة المختلفة لتحقيقها.

يقول «ادغار الن بو»⁽¹⁾: «الأشخاص الذين يلمون بالنهار (يقظة)، يحققون أهدافاً أكثر من الذين يلمون بالليل»⁽²⁾.



1- شاعر وكاتب قصص قصيرة وناقد أمريكي، وأحد رواد الرومانسية الأمريكية. ولد عام

1809 م في مدينة بوسطن. وأكثر ما اشتهر به القصص والأشعار.

2- شاعر وناقد وروائي أمريكي.

اسمح لي الآن أن أتوقف قليلا مع مفهوم الأحلام وأثرها في حياة القافزين، وبالتأكيد فأني عندما أقول الأحلام لا أعني بها المنامات التي يراها الإنسان في النوم، بل أعني بها تلك الافكار المتعشقة بمشاعر الإنسان في لحظات ينفصل فيها العقل الواعي عن الواقع وان كان وسط الحشود⁽¹⁾. مفهوم الأحلام واجه نفس المشكلة الكبرى التي واجهها مفهوم الفشل، وهو الفهم الخاطيء له. والغريب أنّ مشكلة الأحلام عكس مشكلة الفشل، ففي الوقت الذي تتناول فيه بواطن الناس الفشل على أنه واقعة لا مفر منها وهو وهم كما بينا، فأنهم ينظرون الى الأحلام على أنها أوامام في حين أن لها أثر واقعي عميق في حاضر الإنسان ومستقبل.

كثير من الناس يهملون الحلم، ويتجاهلونه وكأنه غير موجود، لو يعلمون أنه أحد أهم مفاتيح أفعال القدر لما تهاونوا فيه إلى هذا القدر. القافزون وحدهم يستطيعون أن يحافظوا على قوة استحضارهم لأحلامهم مهما حازوا منها، يقول بطل الوزن الثقيل العالمي «محمد علي كلاي»: «الأبطال لا يصنعون في صالات التدريب، بل يصنعون من أشياء عميقة في داخلهم هي: الإرادة والحلم والرؤية»⁽²⁾.

أن سبب ذلك يرجع إلى أن ما تحلم به وتخليه بقوة ووضوح، وترغب فيه بكل قوة واصرار، وتؤمن به ايمانا عميقا، وتعمل على تنفيذه بكل عزم ونشاط، فحتما سيتحقق بكل قوة..

1- يطلق على هذه الحالة في الاصطلاح الشعبي تسمية (الصفنة).

2- رؤوف شبايك - 365 مقولة في النجاح - ص 12.

يقول «بوب بروكتر»⁽¹⁾: «إذا رأيت ما تحلم به بعين خيالك، فلسوف تمسك به بين يديك»⁽²⁾.

وأليست غواصة «صقر العروبة» مثال حي على ذلك؟.

من أقوى النظريات التي ذاع صيتها بعد العام 2004م هي تلك النظرية القائمة على أساس ما يسمى بـ «قانون الجذب»، وهذا القانون يحاول وضع تفسير منطقي لظاهرة تأثير الأحلام والأفكار في حياة الناس.

القانون يتلخص ببساطة في: أنّ ما تفكر فيه أو تتخيله أو تحلم به فأنت تجذبه إليك، خاصة وان كان ذلك التفكير مصحوبا بمشاعر حسنة وأحاسيس طيبة.

أذكر أنني دخلت إلى مكتب أحد الاصدقاء فوجدته ينظر الى قلمه ويحركه بين أصابعه وهو يبتسم ابتسامه كبيرة، حتى أنه لم ينتبه لدخولي وسلامي عليه، ظننت للوهلة الأولى أنه قد أحرز تقدما معيناً في عمله، ولكن تبين أنه كان مستغرقاً في احلام اليقظة والتي لم يفصح لي عنها، وبحسب معرفتي به، أظن أنه كان يحلم بالزواج مرة ثانية.

المهم، أنّ ابتسامته تدل على ان تخيله كان مصحوبا بمشاعر جميلة وهذا مهم جدا لتحقيق الحلم.

أنّ الآلية التي تعمل بها الأحلام يفسرها «قانون الجذب» بالشكل الآتي: «إنّ للإفكار قوة مغناطيسية، كما أنّ لها ترددا، وعندما تفكرّ يتم إرسال تلك

1- خير في مجال تطوير امكانيات العقل وتعاليم قانون الجذب.

2- روندا بايرن - السر - مكتبة جرير - 2008 - ص9.

الأفكار، فتجذب إليها مغناطيسياً كل الأشياء الشبيهة على نفس التردد»⁽¹⁾. يقول «تشارلز هانيل»⁽²⁾: «إنّ ذبذبات القوة العقلية هي الأفضل من نوعها على الإطلاق وبالتالي فهي الأشد قوة»⁽³⁾.

إنّها طريقة غير تقليدية في التفكير، أي غير مألوفة، أثبتتها تجارب حياتية لا تكاد تحصر، وشهدت عليها حكايات كل القافزين.

كل الأشخاص الذين حققوا أهداف كبيرة، كانوا أناساً حاملين عظماء، هكذا يقال، ويقال أيضاً:

❖ إذا أردت أن تحلم فلتكن أحلامك عظيمة.

❖ إننا نكبر بأحلامنا.

❖ المستقبل ينتمي الى الأشخاص الذين يؤمنون بجمال أحلامهم.

❖ القائد شخص لديه الرؤية والقناعة بأن الأحلام سوف تتحقق.

❖ الأحلام لا تخدم من لا يحلمون بها.

❖ في الأمثال الشعبية السويدية يقولون: «إنّ هؤلاء الذين يرغبون في الغناء دائماً ما يجدون أغنية».



ولكن اذا كانت المسألة هذه البساطة فلماذا لا تتحقق احلام جميع الناس؟! هل يوجد إنسان على وجه الأرض لم يحلم في مرحلة من مراحل

1- خبير في مجال تطوير امكانيات العقل وتعاليم قانون الجذب، ص 10.

2- رجل اعمال امريكي ناجح ومؤلف عدد من كتب التحفيز في هذا المجال.

3- المصدر نفسه - ص 11.

حياته؟ أكثر الناس أحلاما هم الشباب خاصة اذا كانوا جامعيين.. فلماذا نسمع أنّ اعدادا هائلة منهم لا تكاد تحصل على لقمة العيش فضلا عن الحصول على وظيفة؟ الحلم بالزواج السعيد وبناء أسرهِ والاستقرار، لا يكاد يفارق مخيلة أي فتى او فتاة، فلماذا تمرّ السنون وهم يسعون وراء توفير مستلزمات هذه الحياة ولا يحصلون منها إلا على أقل القليل، هذا أنّ حصل فعلا؟ هل يوجد أمٌّ في الدنيا لا تحلم بمستقبل واعد لابنائها؟ فلماذا اذا لا يتحقق من أحلام الامهات إلا النسبة الأقل، وباقي الامهات تقضي لياليها بالتحسر على حال ابنائها؟

أستطيع أنّ أقول أنّ السبب الرئيس يرجع الى الجهل بالأسباب أو القوانين أو النواميس - سمّها ما شئت - التي خلقها الله تعالى في عالمنا، وجعل لها سلطة على جميع مسارات حياتنا علمنا بها أم لم نعلم..

لو أنّ طفلا صغيرا يجبو على يديه وقدميه، وقد أخذ ذلك الطفل باللعب في شرفة في الطابق العاشر من بناية، في لحظة غفلت فيه أمه عنه، وخلال لعبه أخرج رأسه وجسمه من واجهة الشرفة واختل توازنه.. هل أنّ قانون الجاذبية كان سيرحمه أو يراف به؟.

إنّه المستحيل بعينه وعيانه كما يقولون.. قانون الجاذبية سار على الجميع العالم والجاهل، الكبير والصغير، الرجل والمرأة، الحي وغير الحي، كل شيء بلا استثناء..

الناس لا يعلمون ما هو قانون الجاذبية كما يعرفه العلماء، ولكنهم تكييفوا للحياة معه، فاذا أراد أحد ما أن ينظر من مكان مرتفع يحاول أن يحافظ

على توازنه، وإذا أراد ان يتدلى من سطح ما فانه يستعين بحبل أو سقالة او حزام أمان.. والامهات تراقب صغارها عندما يحاولون اكتشاف المرتفعات وخاصة سلام المنازل.. الناس تتكيف مع سطوة الجاذبية لتعايش معها بسلام..

والمشكلة في «قانون الجذب» انه بخلاف «قانون الجاذبية» لم يتعايش الناس معه أبدا، إلا من شاء ربك.. فكان ما كان من طحنه لاحلامهم بلا هوادة.. ودون رحمة ولا شفقة..

أذاً، عليك وعلى كل من يريد أن يتجنب بطش هذا القانون في حياته، أن يتبته جيدا للقاعدة التي ذكرها قافزون يفكرون خارج الصندوق بامتياز، وأنا على ثقة أنك ستكون ممتناً إذا ما أخذت هذه القاعدة بالجدية التي تستحق. وأنا اسميها «مبدأ التفكير الايجابي او التفاؤلي» وهي ببساطة مقولة: (فكر فيما تريد ولا تفكر فيما لا تريد).

تقول «روندا بايرن»⁽¹⁾: «مثل جميع القوانين الطبيعية، فثمة كمال تام في هذا القانون، أنك تشكل حياتك وكما تبذر تحصد، أن أفكارك هي البذور، والثمار التي تجنيها ستاتي تبعا لتلك البذور التي تزرعها. فاذا كنت شكاء، فسوف يجلب قانون الجذب الى حياتك المزيد من المواقف التي تجعلك تشكو، واذا كنت تستمع الى شكوى الآخرين وترکز على ذلك وتبدي التعاطف والاتفاق معهم، ففي تلك اللحظة انت تجذب اليك المزيد من المواقف التي تجعلك

1- روندا بايرن: من مواليد 12 مارس 1951، هي كاتبة استرالية ومنتج تلفزيوني، تشتهر بالأعمال ذات الفكر الجديد، منها السر وهو كتاب وفيلم يحمل نفس الاسم.

تشكو. بكل بساطة يعكس لك القانون ويرد عليك ما تركز عليه أفكارك تماما»، ثم تقول «بايرون» مؤكدة وانا اتفق معها فيما تقول: «هذه المعرفة القوية، يمكنك ان تغير كل الظروف والأحداث في حياتك بكاملها، من خلال تغيير طريقتك في التفكير»⁽¹⁾.

أنا أترك لك أن تراجع نفسك ومن حولك لتنظر في طريقة تفكيرهم او أحلامهم، ان وجدت من يفكر أو يحلم بما يريد دون أن يخط ذلك التفكير أو الحلم بالخوف من عدم حصوله عليه فانا وقتها أقر معك بخطأ هذا القانون. إن الناس في أحلامهم يتقبلون مع ما يريدون حيناً ومع ما لا يريدون أحيانا كثيرة، والكثرة ترجح كفة الميزان هنا، وهذا لا شك فيه، كما أن سقوط الطفل من المرتفع بسبب الجاذبية لا شك فيه أيضا.

القافرون وحدهم تمكنوا من الاستفادة من هذا القانون وثبتوا بوصلات احلامهم وأفكارهم وأمانهم ورؤواهم وخيالاتهم على ما يريدون الوصول اليه بشكل مباشر.. هؤلاء القلة تمكنوا من القفز خارج شق الـ (لا) النافية..
قيل وما أجمل ما قيل :

❖ لا يمكنك التحكم في ما يحدث لك، لكن يمكنك التحكم في نظرتك لما يحدث لك، وهذا يجعلك تساهم في التحكم بالأحداث، بدلا من أن تتحكم هي بك.

1- روندا بايرون: من مواليد 12 مارس 1951، هي كاتبة استرالية ومنتج تلفزيوني، تشتهر بالأعمال ذات الفكر الجديد، منها السر وهو كتاب وفيلم يحمل نفس الاسم، ص 17.

❖ ان لم ترقَ بنفسك من مرحلة الخالم العادي سوف تبقى ضمن الناس العاديين.

❖ «إن كل ما صنعه الإنسان، بإمكانه أن يغيره».

❖ «لعلّه من عجائب الحياة أنك إذا رفضت كل ما هو دون مستوى القمة، فأنتك دائماً تصل إليها» سومرست وليام⁽¹⁾.

هيا لنحرز هدفا قبل النوم

« كل شيء ممكن.. في ذلك الليل الذي
يثقبه صوت المطر.»

جلست أتفكر في الفرق بين (الأمني والاحلام والأهداف)، لكي
استطيع ان أوجه تفكيري في مسارات قصيرة ويسيرة، وقد تبين لي أن
«الأمني» هي أحاديث النفس ومشتبهاتها، تأتي في القاع من المؤثرات في
النفس والتفكير الإنساني، كتلك المرأة التي تذهب الى السوق فتشهيه هذا
الثوب أو تلك القلادة الذهبية أو قطعة الاثاث الجميلة.. الخ.

إنّ الأمني بشكل عام هي أنواع الرغبات التي تمر بالخيال الإنساني
بشكل عابر. وتوصف الأمني أيضا بانها تعلق النفس بالآمال والأحلام.

فإذا ترسخت أحد الاماني أو عدد منها واصبحت تراود إنسان بين
الحين والآخر، بسبب او بدون سبب، فوقتها تكون قد انتقلت لتكون حلما
من الأحلام التي يرجو تحقيقها، كالذي يرى سيارة ويتمنى أن يسعفه الحظ
في يوم من الأيام لشرائها، أو تلك التي ترى بيتا جميلا فتحلم أن تتزوج
رجلا قادرا على ان يوفر لها واحدا مثله..

وأما إن حلم المرء بشيء ثم اخذ يبحث هنا وهناك في الوسائل الممكنة الذي توصله إليه، أي أنه يبادر ليأخذ إجراءات عملية مهما كانت تلك الاجراءات، فوقتها يقال لذلك الحلم الذي كان يتمناه بأنه أصبح هدفاً. وذلك لأن الهدف كما يُعرّف لغة: «المطلب الذي يوجه الى القصد».

أذاً، وفقاً لرؤيتي :

الأماني مشتهيات عابرة في النفس.

والأحلام أماني مكررة في النفس والفكر.

والأهداف أحلام راسخة في النفس والفكر يتم السعي لتحقيقها.

لهذا اسمح لنفسي بالقول: «راقب أمانيك وحوها الى أحلام، وراقب

احلامك وحوها الى أهداف».

حين كنت في التاسعة من عمري، راجت موجة شراء الدراجات الهوائية في الحي الذي كنا نساكن فيه، وحين كنت أذهب الى المدرسة وأشاهد العدد القليل من الطلاب الذين يملكون هذه الدراجات، أتمنى أن يشتري لي أهلي واحدة مثلها، ولأن مبلغها مما يستحيل على أهلي توفيره نظراً لحالتنا الفقيرة، فما كانت تلك الأمنية تستقر في ذهني إلا اجزاء من الثانية، وفي السنة التالية، فوجئت أن عدد الطلاب والأصدقاء الذين اشتروا تلك الدراجات أصبح كبيراً جداً، وقتها بدأت تلك الامنية تتحول بالتدريج الى «حلم»، وهكذا أخذت أفكر بالدراجة لفترات طويلة، وأنا أحلم بأن اشتريها وألف مع أصدقائي بها، وربما أشغلها في التأجير فاستفيد منها بعض الدراهم، حيث راج هذا الأمر وقتها بين أطفال الحي، وعلى الرغم من التحسن البسيط

في حالة أهلي المعاشية إلا أنها لم تكن تسمح بالإففاق على وسائل ترفيهية كالدراجة الهوائية، وهكذا انقضت سنة أخرى، والى هذه الفترة لم يكن عدم حصولي على الدراجة يسبب لي أي إشكال، صحيح أنني كنت أحلم بها لكنني متفهم للواقع. ولكن ما أن بدء العام الدراسي الجديد، ورأيت أن الدراجات أصبحت اشكالاً والواناً وانواعاً واحجاماً، وكل من هبَّ ودبَّ يمتلك واحدة حتى فاض بي الكيل، وطاش صواي من رأسي، لا بد لي من الحصول على واحدة بأي ثمن.. هكذا أصبح الحال عندي.. اختفت عندي الحسابات والتفهمات.. أريد واحدة.. اخذت تجرباً بالحديث عنها امام اهلي.. ثم بعد فترة وجيزة انتقلت الى مرحلة المطالبة بها، لقد نفذت مني طاقة الصبر فكسرت حاجز الصمت.. لم أعد أفكر بكيف ومن أين؟ كل ما كنت افكر به أنني أريدها، وأريدها بقوة.. في تلك المرحلة اصبح الأمر مؤلماً عندي، لقد كنت أتالم كلما أرى أحدا يركب دراجته واقول مع نفسي: متى اشترى دراجتي؟ واتحسر بشدة.. أصبح طريقي من البيت إلى المدرسة ذهابا وايابا عبارة عن خيال متواصل عنها وكأنها عندي فعلا.

أخذت أجمع مصروفي اليومي، وهو قليل جدا، وأخذت افكر بأن اشتغل في شيء ما لا اعرف ما هو، المهم هو أن أجمع ما استطع الحصول عليه لكي اشترىها سريعا.. وما زاد حرقتي أنه في تلك الفترة انتشر موديل جديد من الدراجات سميت «الدراجة الخضراء» كانت ميزتها أنها تتوقف عن طريق محرك العجلات نفسه «البايدر» وليس عن طريق البريك اليدوي، وكانت تتميز أيضا بأنها تحتوي على ناقل حركة «كبير».. فكانت ضجتها في أوساط الشباب والأطفال ضجة.. وقتها جن جنوني.. بيني وبين نفسي طبعاً، اذا

لم اكن أجزء على الضغط على أهلي إلا أن حديثي عن الدرجات أصبح في البيت وكأنه نشرة اخبارية يومية..

انتهت السنة الدراسية وجلبت شهادتي للبيت فرحا بها، وبعد الظهر نمت، ولما استيقظت عصرا، كانت المفاجأة الكبرى في العالم الذي كنت أعيش فيه بيني وبين نفسي، لقد أيقظوني وقالوا لي: خذ هذا المبلغ واشترِ الدراجة التي تحلم بها، إنها هدية نجاحك..

لو اردت ان أصف حالتي في تلك اللحظة لقلت، أنها فرحة عارمة غمرتني وأغرقتني من أعلى رأسي الى أخمص قدمي، كانت فرحة حقيقية نابعة من القلب، أحسنّ لمثلها إلى يومي هذا.. وكيف لا وأنا أصبحت قاب قوسين أو ادنى من تحقيق أول هدف في حياتي اخذ من عمري ثلاث سنوات تقريبا.. انتقلت فيه من الأمنية الى الحلم ومن ثم إلى مرحلة الهدف..

أما كيف حصلت عليه؟ وكيف تحقق ذلك؟ ومن أين حصل أهلي على المال؟ فلا اعلم..

بعد فترة علمت انهم كانوا يحاولون توفير مبلغا من مصروف البيت ليجمعوا لي ثمن الدراجة، وقبل ايام من استلامي لشهادتي كان والدي قد استلم مبلغا جيدا جدا كبديل حوافر، وتم ترقيته في درجته الوظيفية، وقد انتظروا اللحظة المناسبة ليفاجئوني بالخبر، وقد فعلوا والله..

ما بهم بالفعل هو كيف يتحول الحلم الى هدف؟ أي ينتقل من مجرد التفكير فيه الى السعي بالوسائل الممكنة للوصول اليه والحصول عليه، فان تحول، أي أخرج الإنسان من حالة التخيل مع السكون الى حالة الرغبة مع

الحركة فاعلم انه واقع لا محالة..

لنتوقف للحظة هنا.. أن هذه القوة الكامنة التي وهبها الله تعالى للإنسان يفترض فيه ان يستفيد منها ويسخرها لخدمته.. أعني القوة التأثيرية للأمانى اذا تحولت الى أحلام وللأحلام اذا تحولت الى أهداف.. وأما إن لم يحسن الإنسان استخدامها، فقد فاته الفوت ولات حين مندم.

هل تعتقد بأن هذا الحلم بسيط ولا يستاهل كل هذه المعاناة؟

إذا كنت تعتقد ذلك فاعلم بأن الامور في الحياة الدنيا نسبية، أي أن حلم الدراجة وصعوبة تحققة بالنسبة لي لا يقل عن صعوبة حلم أحد الحمّالين في ان يصبح رئيساً للدولة.. لا فرق البتة.. وقد حصل مثل هذا الحلم بالفعل.. قبل أكثر من ألف عام ولد طفل لأبي عامر سمّاه محمد في جزيرة خضراء جنوب الأندلس، ونشأ مثل أقرانه على القرآن والفقهاء إلا أنه كان ظاهر النجابة، وكانت له حال عجيب في قوة الإرادة والطموح والسعي وراء أهدافه، حتى قال عنه ابن الأبار في كتابه «الحلّة السيرة»: «كان أحد أعاجيب الدنيا في ترقيه والظفر بتمنيه!!».

كان محمد بن أبى عامر لديه حلم عظيم وهو أن يصبح حاكم الأندلس!! وقد كان يخبر أصحابه بهذا والمقربين إليه، حتى أنه لربما قلدهم الخُطط والمناصب وهو مازال في حداثة سنّه!!

واليك هذه القصة التي أوردها أبو الحسن النباهي⁽¹⁾ في كتابه «المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا»: كان المنصور بائناً ليلة مع أحد إخوانه

1- أبو الحسن النباهي: (1313 - بعد 1390 م) من الأدباء المؤرخين.

في غرفة، فرقد رفيقه، ودنيته، ولم يرقد هو قلقاً وسهراً فقال له صاحبه: يا هذا قد أضرتني هذه الليلة بهذا السهر، فدعني أرقد...

فقال ابن ابي عامر: إنني أتفكر في من يصلح أن يكون قاضياً للأندلس.

استغرب صاحبه ذلك، قال له: يا هذا! أنت أمير المؤمنين؟

فقال له: هو كذلك، هو كذلك. يريد أنه أمير المؤمنين..

أنظر كيف يفكر صاحب الحلم الذي يتحول حلمه الى هدف.

يقول: ثم أخذ صاحبه يعرض بعض أسماء القضاء وقال: يصلح فلانٌ ويصلح فلانٌ، ومحمد بن أبي عامر لا يرضا من المذكورين أحداً، حتى ذكر صاحبه أبي بكر محمد بن يبقى، العالم الجليل الفاضل، فتهللت أسارير وجه محمد بن أبي عامر وقال: يا هذا، فرجت عني، ليس بالله يصلح لها أحدٌ غيره. ثم رقد ونام مطمئناً!..

هكذا كان المنصور بن أبي عامر في حادثة سنّه يحدث نفسه بحكم الأندلس، وأن يقود العسكر وينفذ حكمه فيها، فكان يضع هذا الهدف نصب عينيه ويعمل له ويخطط من أجله ويسعى من أجل تحقيقه..

في تلك الفترة كان يشتغل حمّالاً يحمل أمتعة الناس من السوق إلى بيوتهم بواسطة حمار له، وفي أحد الأيام وبعد تعب يوم شاق في العمل سأل صاحبتنا أصحابه ماذا يتمنى كل واحد منكم أن يكون في المستقبل؟.

لم يجبه أحد منهم والسبب أنهم كانوا متعبين ولم يكن عندهم الاستعداد عن الإجابة على السؤال فقال لهم: أمّا أنا فأتمنى أن أكون حاكماً للأندلس.

فأجابوه باستغراب حاكم للأندلس!

فقال: نعم، فقال لصاحبه الذي عن يمينه ماذا تتمنى أن اصنع لك لو أصبحت أنا حاكماً للأندلس؟.

قال: إذا أصبحت أنت حاكماً للأندلس أريدك أن تضعني على ظهر حماري وتجعل ظهري للخلف وتجعل جنودك يضربونني بالعصي ويقولون: هذا الكذاب هذا الكذاب.

فقال صاحبنا الحمال: حسنا، وسأل صاحبه الذي عن يساره ماذا تتمنى أنت؟.

قال: أنا أتمنى إذا أصبحت أنت حاكماً للأندلس أن تعطيني قصرا كبيرا وحصانا أبيض وجواري حسان وبدأ يعدد أمانيه.

وتمر الأيام ويبدأ محمد بن أبي عامر بوضع يده على الخطوة الصحيحة.. استأجر دكانا عند الزهراء - المدينة الملكية التي بناها عبد الرحمن الناصر - أيام الخليفة الحكم المستنصر، ليكون قريبا من هدفه يشاهده طوال اليوم ويجلم طوال الليل، وفي ذلك الدكان كان يكتب شكاوى الناس أو طلباتهم أو حاجاتهم التي يرفعونها إلى الخليفة أو الحاجب، وكان يأنس إليه فتیان القصر وظلّ على ذلك مدة حتى رفع ذكره وعلا شأنه وبدأ نجمه في الظهور. وفي أحد الأيام طلبت السيدة «صبح» زوج الخليفة من يكتب عنها، فدلّوها على محمد بن أبي عامر، فترقى إلى ان كتب عنها، فاستحسنته ونبهت عليه الخليفة ورغبت في تشريفه بالخدمة.

هنا يظهر الفرق بين الأمانى والأهداف.. لم يكن ابن أبي عامر متمنيا فحسب بل صاحب هدف يجلم به، وصاحب الهدف يسعى بشتى الطرق

للحصول عليه..

قال احدهم واضعا وصفة للنجاح: «ادرس بينما يكون الآخرون نائمين، اعمل بينما يكون الآخرون يتسكعون، استعد بينما يكون الآخرون يلعبون، احلم بينما يكون الآخرون يتمنون».

وقال آخر: «الناس دائما ما يلومون ظروفهم، أنا لا أعتقد في الظروف. أنا أعتقد في الأشخاص الذين إن لم يجدوا هذه الظروف المناسبة، يخلقونها بأنفسهم».

وهكذا كان ابن أبي عامر يفعل، فبعد أن دخل عتبة قصر الخليفة بدأ نجمه في الظهور وظهرت منه نجابة وذكاء أعجبت الخليفة، فرشح إلى وكالة ولى العهد «هشام»، وقد أحسن في وكالته فأعجب به الخليفة أكثر ووثق به، فولاه قضاء بعض الأمور بأشيبيلية، ثم ترقى إلى المواريث والزكاة، فأظهر حسن التدبير مع ماله من الرأي السديد فرقاه الخليفة لولاية الشرطة الوسطى بقرطبة، ثم أصبح صاحب السكة «الخزينة».. وظل محمد بن أبي عامر في ترقى مستمرا وبدأ بزوغ فجره ومن ورائه فجر الأندلس كلها، حتى لازم الخليفة وأوكل اليه القيام على أمر ولى العهد «هشام بن الحكم المستنصر»، فبذلك أصبح محمد بن أبي عامر في منزلة رفيعة جدا.

لقد أصبح من كبار رجال القصر وهو مازال في العقد الثالث من عمره، وليس يضاهيه في منزلته إلا الحاجب - بمثابة رئيس الوزراء - «جعفر المصحفي» وقائد جيش الثغور «غالب الناصري»، وأصبح محمد بن أبي عامر حديث العامة في قرطبة، فكان لا يمر يوم إلا وهو في زيادة

ترقى، فكانت أيامه في إقبال، فتمكن حبه للناس وكان بابه مفتوح لهم على الدوام، وأفشى الأمن في قرطبة بعدما ضجت العامة من ضياع الأمن لكثرة اللصوص وتسلبت الفتيان الصقالبة على العامة فقد ظهر وفشى ظلمهم وبغيهم، حتى قضى عليهم محمد بن أبي عامر باصطناعه للرجال البربر من حوله لخشونتهم وصلابتهم عند الحروب، ولكي يمهد لنفسه.

وفي 366 هـ توفي الخليفة، وولى من بعده ابنه هشام وهو ابن اثنتي عشرة سنة، وكان وقتها بلغ محمد بن أبي عامر 39 عاماً، فكان لا بدّ من رجل يدبر أمره ويقوم على عمل الدولة وتدبير الخلافة. فتكون مجلس وصاية على الخليفة الصبّي ويتكون من أكبر ثلاثة رجال في الأندلس وقتها وهم :

1- الحاجب جعفر المصحفيّ

2- قائد الثغور غالب الناصريّ

3- قائد الشرطة وحاكم المدينة محمد بن أبي عامر

عند وفاة الخليفة جاشت الروم وهاجت حتى كادت تطرق أبواب قرطبة، ولم يجرّك الحاجب جعفر المصحفي ساكناً خوفاً على منصبه وتبعه في ذلك غالب الناصريّ قائد الثغور وكانت بينه وبين الحاجب جعفر المصحفي خلافة قديمة وبغضاً وكرهية شديدة، فلم يقم أى منهما لنصرة المسلمين وتأييد النصارى الذين هجموا على ثغور المسلمين.

فقام محمد بن أبي عامر بأخذ رجاله وطلب من جعفر المصحفي أن يمدّه بالرجال والعتاد والمال اللازم للقيام بحملة لتأييد النصارى وليعلموا أنّ مازال بالمسلمين شوكة ومنعة، وبالفعل قام المنصور بحملة عظيمة جدا في

الشمال وغنم من السلاح والأموال الشيء الكثير. وقفل راجعا الى قرطبة بعد اثنين وخمسين يوما من الغزو والجهاد وكان يوزع المال في طريق عودته الى قرطبة على الجند والعوام حتى تمكن حبه في قلوب الناس، واستبشروا به جدا. وكان وصياً على الصبي هشام المؤيد بالله، فقام بإسقاط ضريبة الزيتون عن الناس، فسروا بذلك أعظم سرور، ونسب شأنها الى محمد بن أبي عامر وأنه أشار الى ذلك، فأحبوه لذلك ثم يقول ابن عذارى في «البيان المغرب»: «ولم تزل الهمة تحذوه، والجد يحظيه، والقضاء يساعده، والسياسة الحسنه لا تفارقه، حتى قام بتدبير الخلافة، وأقعد من كان له فيها إنافة، وساس الأمور أحسن سياسة، وداس الخطوب بأخشن دياسة، فانتظمت له الممالك، وأنضحت به المسالك، وانتشر الأمن في كل طريق، واستشعر اليمن كل فريق، وأسقط جعفر المصحفيّ، وعمل فيه ما أراه...».

والتف المسلمون حول محمد بن أبي عامر، في الوقت الذي بدأت أيام الحاجب جعفر المصحفيّ في الزوال، فقد أفل نجمه وكورت شمسه ورجب الناس عنه، وأصبح يمشى وحيدا في طرقات الزهراء بعد أن كان من قبل كثيف الموكب وجليل الهيبة وكان الناس لا يستطيعون إلى الوصول اليه لكثافة موكبه. ثم أقدم محمد بن أبي عامر بالتحالف مع غالب الناصريّ وتزوج ابنته «أسماء» وكان عرس مشهود في الأندلس كلها، وبدأت نكبة الحاجب جعفر المصحفيّ، فخلعه محمد بن أبي عامر وأصبح الحاجب من بعده..

تحجب محمد بن أبي عامر لهشام المؤيد بالله، وحجره في قصره بالزهراء ومنع دخول الناس اليه وتصرف بالملك بنفسه واتخذ جميع مراسم الملك،

ونقش اسمه على السكة، وخطب له على المنابر، وتلقب «بالمنصور»، وابتدأ معه عهد جديد للأندلس ما عرفت مثله من قبل.

حكّم المنصور بن أبي عامر الأندلس زهاء سبع وعشرين سنة، وغزا أكثر من أربع وخمسين غزوة لم يهزم في واحدة قط.

ألا ترى معي أن الأمانى والأحلام والأهداف إذا سقيت بماء المبادرة والمثابرة فإنها تثمر العجائب..؟

إنّ ابن ابي عامر استطاع أن يحقق حلمه ويحكم الأندلس بل هو الحاكم الذي توسعت فيه أرض الأندلس إلى أكبر سعة وحقت على يديه الفتوحات ووسعت المساجد. وبعد مرور الأيام والسنين أمر الحاجب المنصور وزيره أن يبحث عن صاحبيه فوجدهما في السوق كل منهما يعمل في نقل الأمتعة بحماره كما كان فلما حضرا بين يديه قال لصاحبه الأول الذي كان عن يمينه ماذا كنت تتمنى في أيامنا الغابرة فقال أنا..أنا إنما كانت أحاديث ولت وانتهت.

فقال: لا لم تنته.

فقال: هو ذلك.

فقال: لوزيره اجعله على حماره وافعل به كما أراد.

وقال لصاحبه الثاني: ماذا تمنيت؟

فقال: الجوارى وأن تعطيني قصرا وسط بستان وحصاناً أبيض.

فقال لوزيره: أعطوه ما أراد.

فسأل الوزير الحاكم الحاجب المنصور كأنك قسيت على صاحبك الأول

بقدر ما عطفت وأكرمت الثاني.

فقال: ليعلم أن الله على كل شيء قدير.

لهذا قيل وما أروع ما قيل :

- ❖ الإنسان الذي ينجح في حياته هو ذلك الإنسان الذي يضع هدفه نصب عينيه ويعمل على تحقيقه بكل ما أوتي من قوة، هذا هو الإخلاص.
- ❖ اتبع حلمك برغبة قوية لتحقيق هدفك في الحياة.
- ❖ الفائزون هم الذين يوظفون قناعتهم الإيجابية في خدمة أهدافهم.
- ❖ النجاح ما هو إلا التحقيق التدريجي لأهدافنا الكبيرة.
- ❖ سرّ النجاح هو الثبات على الهدف.
- ❖ الأهداف مع الإصرار يمكن أن تتحقق في أي لحظة.
- ❖ لا أحد يستطيع أن يمنع أي شخص إيجابي من تحقيق أهدافه.
- ❖ العقول العظيمة لديها أهداف، أما الباقية فمجرد أمانى.
- ❖ إن العالم يفسح الطريق للمرء الذي يعرف الى أين هو ذاهب.
- ❖ كي نحقق السعادة ينبغي ان نتأكد أن لدينا هدفاً مهماً.
- ❖ أعطني انساناً بأهداف راسخة سوف أعطيك انساناً ناجح، اعطني انسان بلا أهداف، لن أعطيك سوى انسان فاشل.
- ❖ يفشل الكثيرون بسبب جهلهم بكم كانوا قرييين من النجاح عندما استسلموا للفشل.
- ❖ إنسان بدون هدف كسفينه بدون دفة كلاهما سوف ينتهي به الأمر

على الصخور.

❖ ليست الأهداف ضرورية لتحفيزنا فحسب، بل هي أساسيه فعلاً
لبقائنا على قيد الحياة.

❖ إذا لم تكن تعرف إلى أين أنت ذاهب فربما ينتهي بك المطاف إلى مكان
آخر.



«جوان كاثلين رولنغ».. هل سمعتِ بهذا الإسم من قبل؟ قد يبدو
الاسم غريباً، لكنك بالتأكيد تعرف أحد أشهر أعمالها «هاري بوتر»، تلك
القصة الخيالية التي حققت مبيعات مهولة، جعلت من صاحبها أول
مليارديرة عن طريق التأليف حسب ما أوردت مجلة فوربس المهمة بعالم
المال.

في عام 2007م أصدرت جوان الجزء السابع من روايتها، ووقف قراءؤها
بالملايين من كل أرجاء المعمورة في انتظار ساعة طرح الكتاب للجمهور،
ولقد بيع منها في الولايات المتحدة فقط في اليوم الأول 12 مليون نسخة!!
فمن هي هذه المرأة وكيف كانت بدايتها؟

هي امرأة إنجليزية، عملت فترة في إنجلترا ثم سافرت لفرنسا ثم إلى
البرتغال حيث كانت تعمل معلمة في أحد مدارسها، وهناك تقابلت مع
زوجها وأنجبت منه طفلة سميتها جيسكا، وبعد سنوات طلقها زوجها
وحدث بينها شجار عنيف ومتكرر، دفعها إلى الالتجاء للسفارة الانجليزية
طلباً للحماية من زوجها السابق. عادت رولنغ إلى بريطانيا، وهناك فُجعت

بموت أمها، الأمر الذي أثر كثيراً على حالتها النفسية، فعاشت حالة من الإحباط الكبير، وأقامت في تلك الفترة مع أختها في منزلها بأذنبرة.

وفي 1995م - أي في الثلاثين من عمرها - بدأت رولنغ بكتابة مغامرات الصبي الساحر هاري بوتر الذي تجلّى لها أثناء رحلة في القطار. فكانت تحلم وهي في القطار بأبطال خياليين يجسدون شيء من أحلامها وأمانيتها الطفولية.

في ذلك الوقت كانت رولنغ تعيش على نفقة الدولة عاطلة عن العمل، بل لقد كتبت معظم فصول قصتها على المقاهي كما قالت هي في مقابلة تلفزيونية.

وحين انتهت من فصول روايتها دفعت بها إلى أكثر من ناشر فرفضوا نشر الكتاب، حتى بلغ عدد الراضين لها اثني عشر دار نشر. لم تياس جوان، وواصلت البحث إلى أن وجدت ناشراً صغيراً وافق على مضض بنشر الكتاب، ومن المضحك أن الذي ضغط على الناشر لنشر الكتاب هو ابنته ذات الثمانية أعوام والتي قرأت الرواية وأعجبت بها جداً. بيد أن الناشر طلب منها طلباً غريباً، وهو أن يكتب الحروف الأولى من إسمها فقط، حتى لا يعرف القارئ أن كاتب هذه القصة امرأة وذلك لاعتقاده أن القراء سينفرون من قراءة كتاب أطفال كتبه امرأة.

وافقت جوان على طلب الناشر.. وأصبح الكتاب جاهزاً كي يطرح في الأسواق. وبالفعل طُرحت الرواية في الأسواق بدون دعاية مسبقة، لكنها رغم ذلك نجحت نجاحاً كبيراً ومُبهراً، وكانت بداية الشهرة والنجاح، حيث

توالت الكتب، وحقق كل واحد منها أرقاماً مذهلة تزيد عن سابقه، وأخرجت أربعة أفلام من السلسلة ذات الكتب السبعة، فتكونت إمبراطورية هاري بوتر الضخمة. ويُعتقد أن كتب هاري بوتر قد باعت أكثر من أربعمئة مليون نسخة حول العالم، وأصبحت رولنج ثرية، فتزوجت من جديد، وأنجبت طفلاً آخر، وصارت واحدة من أكثر الشخصيات تأثيراً ونفوذاً. بل إن صحيفة «صن داي تايمز» الأمريكية صنفتها في المرتبة 136 على لائحة أثرياء العالم والـ13 في لائحة أثري نساء بريطانيا، وفي عام 2001م، اشترت قصرًا فاخرًا تعود هندسته للقرن التاسع عشر. يقع على ضفاف نهر التايمز قرب أبيرفلدي في اسكتلندا. كما امتلكت رولنج أيضًا منزلًا يضم 13 غرفة نوم في «ميرشيستون» في أدنبرغ وبيتًا في «كينسغتون» غرب لندن بـ8 مليون دولار.

وفي عام 2006م، أفادت مجلة فوربس الأميركية أن رولنج هي ثاني أغنى امرأة في العالم وصنفتها في المرتبة الـ48 على لائحة أكثر المشاهير تأثيرًا لعام 2007.

وكل هذا بفضل حلم جاءها في قطار، حولته بموهبة فذة إلى سلسلة أهداف ناجحة بمختلف المقاييس. لتتحول من امرأة عاطلة مطلقاً، تلاحقها الأزمات والمشكلات النفسية والمادية، إلى ظاهرة قافزة يعجز الكثيرون عن تحليلها.



والآن أود أن أعود إلى «محمد بن أبي عامر» لاطرح السؤال الأتي: افلا

يُعد نموذجا مثاليا للقافزين من شقوق الطين؟

لقد قفز من حمال في أسواق الاندلس خارج أسوار الزهراء إلى حاكم
للاندلس كلّه داخل اسوار الزهراء.

بماذا فعل ذلك؟ بأمنية حولها الى حلم، وبحلم حوله الى هدف، ثم
أعطى الهدف حقه ومستحقه من المبادرة والمثابرة.

لم يولد وفي فمه ملعقة ذهب، بل سار بين مسارات القدر، وأعطى الامر
ما يستحقه من السعي الجاد، حتى تمكن من أن يأكل بملعقة الذهب بعرق
الجبين. وما اعظمها من حكمة قالها حين عاقب صاحبه وهي : ليعلم ان الله
على كل شيء قدير.

علينا ان نستفيد من حول الله تعالى وقوته فينا وفي حياتنا لنغير من شأننا
كله.. فأن يكون لك هدف في الحياة فهو شيء عظيم لا تجده في الخارج، إنما
تجده داخل نفسك.

إن تحقيق الأهداف يتطلب امتلاك استراتيجيات طويلة الامد.. أي
التخطيط المسبق، اذ يقال: «إذا لم تخطط لأهدافك، ليس من حقدك أن تندم
على عدم تحقيقها» ومحور جميع الاستراتيجيات هو تثبيت الهدف بعيد المدى،
ثم قطع الخطوات بالتدرج، فان ذلك سيقربك من هدفك، يقول احد
القافزين: «كل يوم ضع مخطط لأهم الأشياء التي تنوي القيام بها، وسوف
يتولى عقلك الباطن تسهيل المهمة عليك».

إنّ ما يساعدك في القفز من الواقع الذي تحيا فيه أيا كان ذلك الواقع هو
ان تأخذ التلميحات التالية بعين الاعتبار:

أولاً: قرر ان تففز مع القافزين، سئل أحد الزنوج وكان فقيراً ثم أصبح مليونيراً، كيف أصبحت مليونيراً؟ فقال: بأمرين: قررت أن أصبح مليونيراً، ثم حاولت أن أصبح مليونيراً.

ثانياً: تدبر العقبات، فلا تدع العقبات مهما كانت مخيفة أن تحيد بنظرك عن هدفك. يقول بعضهم: «الحياة هي عبارة عن حل للمشاكل، فإمّا أن تهزمك المشاكل أو تجعل منك شخصاً عظيماً، الأمر متوقف عليك».

ثالثاً: تدبر الأوهام، لا تدعها تثبط من همتك وعزيمتك وإراداتك، فكما يقال: «أوهامنا دائماً تحول بيننا وبين قدراتنا على تحقيق أهدافنا»، ومن تلك الأوهام، أن تحدّثك نفسك بأن الوقت قد فات على كل هذا، فاعلم أنت لست كبيراً لدرجة لا يمكنك معها وضع هدف جديد أو حلم جديد لحياتك، لأنك ما دمت تتنفس فالأمر يستحق المحاولة ويستحق العناء، وبالنتيجة لن تخسر شيئاً، وقد قيل: «يستطيع الناس تغيير حياتهم بمجرد تغيير وجهات نظرهم».

رابعاً: اختر هدفاً عظيمة ولا تتردد، فكما قيل: «فليكن هدفك بلوغ القمر. حتى أن فشلت في الوصول اليه ستحط بين النجوم»، اذ الخطأ الكبير ان تراهن على الاهداف الصغيرة، نعم يمكنك أن تعتبر الأهداف الصغيرة كدرجات السلم تصعد عليها لكي ترقى إلى هدفك العظيم، بل أن بعضهم يرى ذلك عاملاً مساعداً مهما فيقول: «عليك أن تحدّد لنفسك هدفاً صغيراً تعينك على تحقيق الأهداف الكبيرة». هذا في الوقت الذي يصرح فيه بعض القافزين بأنه «يجب ان يكون بين هدفين عظيمين».

إنَّ الأهداف العظيمة تأتي من الأحلام الكبيرة، والأحلام الكبيرة تأتي من استكثار الأمانى، يقول حضرة سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وسلم: ﴿إذا تمنى أحدكم فليستكثر فإنها يسأل ربه﴾⁽¹⁾.
وفي الختام أرجو ان تتذكر القاعدة التي تقول:
«إنك إذا سعت نحو أهدافك، أهدافك بدورها ستعسى نحوك».
لأستسهلن الصّعب أو أدرك المنى فما انقادت الآمال إلا لصابر.

1- رواه عبد الحميد وهو على شرط البخاري ومسلم.

هل تريد شراء زمن جميل لا يزول؟!

«إنه لمن طرائف الحياة أنك إذا لم تقبل سوى الافضل
فإنك في اغلب الاحيان تحصل عليه»

(1)

قلة هم الذين لم يشخبطوا في مكان ما، على الحائط أو الورق أو كرسي الحافلة أو باب الحمام أو أماكن لا تخطر على البال، وبعض الشخبطات هلوسات، وأكثرها توثيق لذكريات ربما تكون عامة وربما تكون حميمية.. ولا أعلم صراحة إن كانت هذه الحالة شائعة في الغرب شيوعها في عالمنا الشرقي أم لا .. وإن كنت أرجح شيوعها في جميع الحضارات، اعتمادا على رؤيتي القائمة على أساس أن هذه الشخبطة هي من آثار القوة الموحدة الباطنة في اللاوعي الإنساني المتوارثة من أقدم العصور حيث كان الانسان القديم يشخبط على جدران الكهوف، وكلما لمست تلك القوة منفذا مناسبة أظهرت آثارها في حياة الناس على اختلاف حضاراتهم ومعتقداتهم..

أكثر هذه الشخبطات شيوعا في مجتمعاتنا تسمى «الذكريات»، حيث

1- وليام سومرست موم (25 يناير 1874 - 16 ديسمبر 1965) روائي وكاتب مسرحي إنجليزي كان من أشهر كتاب بداية القرن العشرين.

يكتب أحدهم مثلاً: «ذكرى فلان وفلان وفلان بتاريخ كذا» هذه أبسطها، وهناك من يستهل كتابته للذكرى بحكمة أو كلمة مشهورة، واما المحبّون وخاصة الطلاب منهم فيكثرون في ذكرياتهم رسم القلوب والأسهم مرفقة بالحروف الأولى من اسمي الحبيبين.

أنا أذكر أول مرة كتبت فيها ذكرى، أو بالأحرى شخبطت فيها ذكرى، أتذكرها، لأنها كانت مصحوبة بصرخة قوية من أمي من خلفي جعلتني أقفز من الخوف وهي تقول: ماذا تفعل، لقد لطخت الجدران كلّها، ألم أنك عن الشخبطة على الحيطان؟، صدقوا أو لا تصدقوا، تلك كانت لحظة وعي حقيقية في صغري، حتى أني لا أذكر كم كان عمري وقتها، وما حصل هو أنّ أمي بعد ان عنفتني تركتني وذهبت وكأنها لم تقل شيئاً، وأما أنا، فقد اشتغل في رأسي شريط مصور رأيت فيه الأماكن التي كتبت فيها العبارة ذاتها، وقلت لنفسي: لماذا أفعل ذلك؟.

بعد فترة من الزمن ليست بالقصيرة وحين اخذت مسألة كتابة الذكريات تتكرر من قبل الأصدقاء في مراحل الدراسة المختلفة كانت صرخة أمي تمنعني من مشاركتهم بها، وأقول في نفسي إنها أفعال أطفال متى يكبرون، وكنت لا أرغب بأن يكتب أحد منهم اسمي في الذكرى ولكني لا أمنعه.

في أحد الايام، خرجت مع اصدقائي الى أحد المتنزهات، وهناك قفز احدهم ليكتب ذكرى، وأين.. على باب حمام صدأ في المتنزه، نهرته قائلاً: أهذا مكان تكتب فيه ذكرى وتذكر اسماءنا فيها، ما بك؟!!

فقال : نعم، بسببها ساكتبها هنا.

لم يتوقف أحد عند هذا الأمر إلا أنا، وانتهزت فرصة مناسبة وسألته عما قصد في كلامه، فقال: زوجة أبي، كانت دائما تفتش في أوراقى واذا وجدت ذكرى أو خاطرة او شيء مزقته، فأردّ عليها بأن أكتب بالقلم العريض على باب الحمام من الداخل اسمها، وطبعا آخذ حصتي من ضربها، ولكن لا يهم لن أتوقف من كتابة اسمها على باب الحمام. غافلت أصدقائي وعدت لتلك الباب القذرة ونظرت فوجدته لم يكتب أسماءنا بل اسمها.

هذا الموقف، أثار سؤالاً نفسي: لماذا كنت أكتب الذكريات ولماذا امتنعت، وهل انا مثل صاحبي واقع تحت تأثير ضغط نفسي معين؟

واخذت أستعيد في ذاكرتي لحظة الوعي تلك التي حدثتك عنها وأتفحص ما قبلها وما بعدها، فبسمت بيني وبين نفسي وقلت: يبدو انني احسن حظا من صاحبي، والحمد لله.

ساخبركم بما تذكرت، أو ما اكتشفت، لقد كانوا في المدرسة يعلمونا الرسم، ووقتها اشتريت اقلام تلوين من نوع «الباستيل»⁽¹⁾ كان أحلى لون يعجبني فيها هو اللون الرماني كما اسميه «الأرجواني»، فكنت ارسم الشمس والأشجار والأشخاص والدبابات بهذا اللون، لم يكن يفلت من حصار الألوان هذا إلا علم بلادي ولا أعلم لماذا... كنت ارسمه باللوانه الطبيعية، ربما لأن جزءاً من ثقافة التربية والتعليم عندنا كانت تقديس

1- الوان الباستيل هي حلقة الوصل بين خامات الطباشير وبين الخامات ذات الطابع الزيتي، ففي الوقت الذي تحتفظ فيه بكثير من خواص الطباشير نجد أن المادة الدهنية التي تضاف إليه تجعل منه خامة أكثر نعومة، الأمر الذي يجعله أكثر فعالية في مدى خطوطه وجوده ملمسه من الفحم الصناعي والطبيعي كما أنه يتميز بالنقاء وشدة النضوع.

العلم حيث كنا نصطف في ساحة المدرسة لأداء مراسيم «رفع العلم» وكان يصاحب ذلك كلمات المعلمين، وصوت ذلك الطفل الشجاع وهو يصرخ باعلى صوته بعد الانتهاء من رفع للعلم: «عش هكذا في علو أيها العلم... فأنتنا بك بعد الله نعتصم»، أقول: من المرجح أن هذه المراسيم رسخت في باطني هذا الاحترام للعلم حتى قبل أن أعي معنى الكلمات التي كان يقولها، فكان اللاوعي يسيطر على أناملي الصغيرة حين أرسم العلم بألوانه المختلفة.

لنعد ألى قلم الباستيل الرماني، لأنني أحببته فقد كنت أريد أن أراه في كل مكان يحيط بي، وأيضا هذه حالة كان اللاوعي يسيطر فيها على وعيي، والأآن هل تعلمون ما كنت اكتب: لم أكن اكتب إلا كلمة واحدة وحرف واحد وهما «ذكرى ن» وحرف النون أرسمه بالمقلوب، أما كيف تعلمت كتابة كلمة ذكرى فلا اذكر، وأما لماذا أكتبه بالمقلوب فلاني شاهدته في أحد الكتب مرسوم بهذه الطريقة ولما سألت عن سبب ذلك قالوا: النون في الرياضيات يكتب بهذه الطريقة، وقد أعجبتني بدرجة اعجاب اللون الارجواني، أظن إعجابي به بسبب أنه أول حرف من اسمي وأنه تفرد بغرابة كتابته عن بقية الحروف.. أظن ذلك.

إذا، لم يكن في طفولتي أزمة نفسية بسبب أمي، وان منعها لي لم يكن ضد كتابة الذكرى بحد ذاتها بل لأنها ليست في المكان المناسب، لهذا ابتسمت وحمدت الله اذ كان حظي أفضل من حظ صاحبي.

يبدو أنني أسهيت قليلا في ذكرياتي حول شخبطاتي، ولا استغرب ذلك، لأن بحر الذكريات لا ساحل له كما يقال..

المتعة في حديث المرء عن ذكرياته أو تذكرها خاصة إذا كانت تلك الذكريات جميلة، تعود حسب تصوري ألى أنها بشكل أو بآخر تعيدنا وقتيا لنشوة الزمن الجميل، أو تجلب لحظات الزمن الجميل لحاضرنا..

انظر إلى أي شخص يتحدث عن ذكرياته سترى أن عينيه أخذت تسبح في عالم ثان بين فترة وأخرى وأن وجهه يتغير وربما يتهلل، وسوف تتغير نبرة صوته بشكل أو بآخر، وهذه العلامات تتضح أكثر ما تتضح كلما طالت فترة الحديث عن الذكريات وتعمق المرء في سرد تفاصيلها.

من جمال الذكريات أنها من الأمور التي يلجأ لها الناس أحيانا في أسوء حالاتهم ليحاولو التخفيف عن بعضهم البعض فيقول أحدهم للآخر مثلا: « لا يهّمّ كلها ستصبح سوالف» أي أنّ هذه اللحظات القاسية سوف تمرّ عليها الأيام فتذكرها ونقّصها على بعضنا البعض، وهو نوع من أنواع التفاؤل بالذكريات لما لمسها الناس من أنّ الذكريات حتى لو كانت مؤلمة فحين يتعاقب عليها الزمن يصبح فيها نوع من المتعة او لا أقل من الراحة.. ربّما لأنها أصبحت من الماضي، أو ربما لأنّ سحر الذكريات وروعها في النفس ترجع لكونها قفزت من بين شقوق الزمن.

تأمل.. مهما تقدّم بنا العمر، فأنّ الذكريات تمسك بالزمن الجميل بقبضة من حديد ولا تدعه يفلت من يدها أبدا، وكلما استحضرتها جلبت ذلك الزمن بنشوته وحلاوته لواقعك وحاضرك حتى ولو كنت في اتعس مكان على وجه الارض أو في أسوء حالاتك.. حتى أنّ هناك مثلا شعبيا يدعم هذه النظرية فيقول: «إذا ضامك الضيم فتذكر أيام عرسك» وكما هو معلوم

فأنّ الأمثال تضرب ولا تقاس والمقصود إذا ضاقت عليك أحوال الدنيا فتذكر أقوى لحظات سعادتك فأنّ الأمور ستيسر..

من علامات احتفاظ الذكريات بالزمن الجميل أنك إذا تذكرت لحظات كنت فيها شجاعاً فأنّك لحظة التذكر تشعر بشيء من النشاط.. وإذا تذكرت لحظات الفرح فانك تبسم وربما ينشرح صدرك وإذا تذكرت أوقات النجاح أن ثقتك بنفسك تزايد، وإذا تذكرت لحظات عبوديتك لربك فأنّ حالتك الايانية تنشط.. الخ.

إذا بعض الذكريات تمنحنا القوة التي نحتاجها في أوقات الضعف.

وبعضها تمنحنا السعادة والفرح في أوقات التعاسة والشقاء.

وبعضها تمنحنا الإرادة بزيادة الإيمان في أوقات الغفلة.

وبعضها يمنحنا: الهمة، الغنى، القناعة، الصحة، كل ما نحتاج إليه في

أضعف حالة نكون بها..

إنها تمنحنا قوة معنوية من جنس ما نشعر بالحاجة إليه تماماً، وكلما وثقنا

بها أكثر وبأمكانية تكرارها فأنّ أثرها يقوى في نفوسنا، وفائدتها تعظم في نفوسنا.

هل تعلم لماذا؟

باعقادي أنّ ذلك يرجع الى أنّ الذكريات تحتزن ما اسميه «الزمن

الجميل» بكل طاقته وامكانته وروحانيته، واستحضارها لحاضرنا يعني أننا

نجلب ذلك الزمن ونطلق قوته لتساعدنا في لحظات ضعفنا أو حتى لتزيد

من قوتنا وتضاعف منها إن كنّا لحظة الاستدكار أقوىاء بالفعل.. واذا، فهي

في كُلِّ الأحوال مفيدة لمن أراد أن يستفيد منها..

على أن هذا لا يعني انعدام الدور السلبي للذكريات الأليمة أو التعيسة أو السوداوية.. بل لربما يكون هذا النوع من الذكريات أكثر تعلقا في الذهن أو النفس من تلك.. ولكن يفترض بالانسان أن لا يكثر من ذكرها وتذكرها لأنها تؤدي الى استحضار «الزمن التعيس» وهذا بدوره يهدم لحظات القوة أو يضاعف من لحظات البؤس والشقاء.. فأن كان أحدهم يتمتع بسرذ الذكريات الحزينة فأنا أعتقد بأنه واحد من ثلاثة:

أما جاهل بخطورة هذا الأمر وما يسببه لنفسه من أذيه، وأرجو أن أكون هنا قد نبهته على الخطأ الذي يرتكبه بحق نفسه وبحق كل من يحيط به من محبين.

وأما أن يكون متهاونا في حق نفسه، راكنا الى السكون الى الحالة التي هو فيها، وهذا أدعوه لإعادة النظر في نظرتة للحياة، واذكره بقوله تعالى: «إنَّ الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بانفسهم».

وأما أن يكون مصابا بأحد أنواع الوسواس القهري، أي من الذين يَحْتَنِقون اذا لم يكونوا بؤساء، وقد رأيت شخصا بهذا الوصف فنظرت الى السماء وقلت: الحمد لله الذي عافانا مما ابتلاك به وفضلنا على كثير من خلقه تفضيلا، الحمد لله.

باستثناء هذه الحالات الثلاثة وما يتعلق بها، فأن لعالم الذكريات إمكانات وقدرات فائقة.. فاستفد منها بالشكل الصحيح لأنها سلاح ذو حدين، وضع في اعتبارك نصائح القافزين إذ يقولون:

❖ احبي الذكريات الجميلة باستحضارها دائما في أوقاتك كلها لأنها من نقاط قوتك، وأمت الذكريات الحزينة بنسيانها أو التغافل عنها وكأنها لم تكن، فهذا يضعف من نقاط ضعفك.

❖ إن أردت أن تبدأ بالتفكير، فلما لا تبدأ بتذكر شيء عظيم.

❖ الانسان هو ما يفكر به، وما يتذكره من انجازاته.

❖ عندما تعتقد بشيء إلى حد اليقين فهذا الشيء سوف يتحقق ولو بعد حين، فاجمع في ساعتك كل أزمان قوتك، زمن الذكرى الماضية وزمن الحلم الحاضر وزمن الهدف القادم.

أن «قانون التجاذب» الذي كشفت مؤخرًا نخبة من رواد «التفكير خارج الصندوق» والذي ينصّ كما ذكرنا على أن: «كل ما تفكر فيه يمكن أن تحصل عليه» يعطي تفسيرًا منطقيًا ومبسوطًا لامكانية الاستفادة من طاقة الذكريات الكامنة في الزمن الجميل.

إن لهذا الأمر أثرًا إيمانياً عظيماً، فقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾⁽¹⁾، وقوله تعالى: ﴿وَأذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾⁽²⁾، وقوله تعالى: اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَأذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾⁽³⁾، وقوله تعالى: ﴿وَأذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ. إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَىٰ

1- مريم : 41.

2- مريم : 51.

3- ص : 17.

الدَّارِ. وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ. وَادْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ
وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ. هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لِحُسْنَ مَآبٍ. جَنَّاتٍ عَدْنٍ مَّفْتَحَةٌ
لَهُمْ الْأَبْوَابُ. مُتَّكِنِينَ فِيهَا يُدْعَوْنَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ. وَعِنْدَهُمْ
قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ. هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ. إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا
لَهُ مِنْ نَفَادٍ ﴿١﴾. وغيرها من آيات الذكر الحكيم، وجميعها تدور حول محور
وحيد هو تذكر أعظم المآثر وأكمل الخصائص والصفات وفضائل المكارم
والعادات، والخيرات العظام التي سينالها من يتصف بها او يسعى للتحقق
بعضها، والوسيلة المساعدة لذلك هو التذكر.



قد يقول قائل: إن الحياة ليست دائما بهذه البساطة، فقد تحصل الذكريات
الإليمة في قمة حالات سعادتنا وفرحنا، ولا شك أن استحضارنا لأوقات
السعادة تلك وهي الأهم في حياتنا سيجلب معه ذلك الألم المرير، وهذا
سيؤدي الى نتيجة عكسية، اذ يصبح الزمن الجميل وسيلة لاستحضار
الزمن التعيس وان كان بغير قصد.. ألا يبطل هذا فائدة نظرية استحضار
الزمن الجميل التي تقول بها؟

فأقول: نعم بالتأكيد ان ذلك ما سيحصل على الوصف الذي ذكرت وعلى
التفصيل الذي بينت.. ولكنني أتمس منك هنا أن تمهلي قليلا لاكتشف لك
عن وجهة نظري في طريقة حلحلة هذه العقدة التي وضعتها أمامي وأمام
من بدأوا يشعرون أنهم قد تعلموا شيئا ربما يساعدهم على تجاوز الضنك

بمختلف أشكاله والذي لم يزل معشعش في صدورهم..

إنَّ جوهر المشكلة في الذكريات الجميلة المقترنة بالذكريات الحزينة، ليس في الذكريات بحد ذاتها بل في شيء آخر لا علاقة له بهما معاً، وهو مفهوم خاص يسمى: «التزامن»، فما هو التزامن؟

التزامن ببساطة هو حصول أمرين مختلفين في زمن واحد، ويكون بين الحادثتين رابط خفي. فمثلاً: قد يقع القدرح من يد الأم فينبض قلبها بسرعه ويمتلئ كينها بحرقة تجاه ولدها الذي يتعرض لحادث دهس في تلك اللحظة بالضبط. هذا الحالة تسمى تزامن، حادثان مختلفان بينهما رابط خفي يقعان في مكانين مختلفين ولكن في زمن واحد، والعجيب فيه أنَّ احد الحادثين يؤثر في الآخر.

هذا هو المفهوم العام للتزامن، وهو مفهوم رفضه العلماء الماديون، لأنَّ حالاته لا تقاس عندهم ولا يمكن دراستها إحصائياً، ولكن مؤخراً أخذ هذا المفهوم يلقي رواجاً كبيراً في الولايات المتحدة خاصة لدى فئة الشباب، مع تزايد الاهتمام بالأديان الشرقية والتصوف ورفضهم المتزايد للمادية.

إذا تجنبتنا هنا الخوض في الجدل حول علمية التزامن من عدم علميته، فأني شخصياً اعتقد بأنَّه مفهوم سار في لاوعي المجتمعات والناس يستجيبون له دون شعور منهم، ومعنى ذلك أنه يؤثر في الناس ويتأثرون به دون ان يفكروا فيه او يفهموه..

هذا المفهوم انعكس على مسألة اقتران الذكريات الجميلة بالتعيسة في وقت واحد.. ثم تعمق شيئاً فشيئاً حتى بات يؤثر على حاضر الناس في اسعد أوقاتهم..

أذكر مواقف كثيرة، تكون العائلة مجتمعة، ثم يطرأ حدث طريف يجعل الجميع يضحكون ويقهقهون الى درجة السعال، وبعد عاصفة الفرح والسرور تلك، اسمع جدتي أو احد اقاربي يقول: أعوذ بالله، اللهم اجعله خيرا، اللهم آتنا خيرا وادفع عنا شرها.. فأوجس في نفسي خيفة.. لماذا يقولون ذلك كلما بلغنا حدّ القهقهة من الراحة والسعادة؟ لا بدّ أنّ شيئا سيئا سيحدث.. والغريب أنّه الشيء السيء اذا حدث بعد أسبوع أو شهر أو اشهر يقول أحدهم أن ذلك بسبب تلك الضحكة؟

ما هذا؟ هل هذا جنون ام أنّ هناك سرّاً خفياً؟

حين كبرت قليلا، كنت أخاف كثيرا من الفقهة خاصة في أوقات الأمتحانات، سألت احد المتدينين- وكنت يافعا- عن علاقة الضحك والفرح الكثير بالمشاكل التي تصيبنا بعدها، فقال لي العبقري وقتها: نعم، هذه عقوبة من الله، فارعيني جوابه، قلت لماذا؟ قال: لأنّ الله تعالى قال: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾، ولم يذكر لي نصّ الآية كاملا وهو قوله تعالى حاكيا عن قارون: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾⁽¹⁾، ومعنى الآية في جميع التفاسير، أنّ قوم قارون قالوا له: لا تتكبر وتبطر بما آتاك الله ولا تتفاخر، فانه زائل أولا وآخرا، فلا تفرح ببغيك ان الله لا يحب هؤلاء الفرحين. وهذا يعني أن الاية الكريمة تتحدث عن تنكر لنوع معين من الفرح وليس مطلق الفرح.

1- القصص : 76.

وهكذا ولعوامل متعددة قلت المسافة الزمنية بين الأفراح والأتراح، حتى باتت الترحة تنغص على الإنسان حياته حتى في عز الفرحة، فتحول الأمر إلى التزامن..

تصور.. إذا ضحك الإنسان من كل قلبه يتخوف من حصول مكروه عاجل له، أي يتشائم بطريقة لا شعورية، فكيف أن حصلت له بالفعل حوادث سيئة في قمة أوقات الفرح، كما حصل معي حيث إنني بعد أن عدت وجميع معارفي من حفل زفاف عمي، وما أن دخلنا الدار حتى سمعنا العويل والصراخ إذ توفي ابن اخت العريس بحادث سير.. فتحولت وليمة العرس الى مأدبة ماتم.

مثل هذه الحوادث يقفز فيها مفهوم التزامن الى السطح بشكل صارخ، ولا تستطيع النفس الإنسانية الإفلات من جاذبيته التي تحاول ابتلاع جميع الذكريات الجميلة لتخفيها في زاوية سوداء معتمة كما يفعل الثقب الأسود بكل ما يقع في مجال أفق حدثه، حتى أن الضوء وهو أسرع شيء في الكون لا يستطيع الإفلات منه، اذ يسحبه إليه ليخفيه في باطنه الخالك السواد.

هذا ما يفعله التزامن بافراحنا..

يظهر أني سودت الدنيا، وربما يصح في الآن قول القائل: «جئت تكحلها فاعميتها».. حسنا، صبركم علي قليلا..

بعد أن شرحتنا المشكلة وسبب حصولها، فلنبداً بكشف اسرارها..

لنبداً بقصة «قدح ماء الأم ودھس الابن» ولنسأل: هل كلما يسقط القدح من يدها يدھس ابنها أو أحد ابنائها؟ ليس شرطاً.

هل أنّ أي أم تسقط قدحا فان ابنها يتعرض للدهس؟

الجواب هنا قطعاً لا.

هل يعني هذا انه لا يوجد قانون للتزامن وأنّه مجرد هراء؟

لم أقل ذلك، هناك فعلاً حالات في حياتنا لا نستطيع إنكارها ينطبق

عليها مفهوم التزامن؟

أذاً، ما القصة؟

القصة ببساطة، أنّ مفهوم التزامن ينطبق على حالات خاصة في ظروف خاصة لا يشترط بأيّ شكل من الأشكال تعميمها على جميع الحالات المشابهة، ولهذا لم يعترف بعض العلماء به كقانون.

هذا يعني أنّ الأم التي دهس ابنها، اذا سقط من يدها الكأس مرة أخرى فإن عليها ان تنحني وتحمله بكل بساطة وتكون متأكدة ان ابنها سليم، وذلك لان تلك اللفظة او الرهبة الفجائية لم تحصل لها.. بتعبير آخر: ليس سقوط الكأس سبب أو علامة على شيء سيء بذاته، وما حصل أن حالة خاصة نقلت ألم الولد وحولته إلى رهبة في قلب الأم، ولا علاقة للكأس لا من قريب ولا من بعيد.. وهذا يعني أنّ شروط التزامن عبارة عن حالات خاصة جداً غير مقيدة بأشياء حسيّة كسقوط الكأس.. وهنا يأتي دور فارس الظلام وأعني به «الوهم»، حيث يوهم الوهم بالتزامن بين سقوط الكاس والحوادث السيئة وهكذا مع جميع الحالات..

وبنفس الطريقة يتحكم «الوهم» باجمل لحظات حياتنا فيخيل لنا أنّ هناك تزامناً بين القهقهة وبين الحوادث السيئة، وأيضاً بين الذكريات

السعيدة التي تصاحبها ذكريات سيئة، ولا تزامن في ذلك كله. أي ليس هناك أي علاقة شرطية بين الحدثين إطلاقاً، وكلّ ما يحصل يمكن تسميته «تزامن لا شرطي» أي حدثين وقعا في وقت واحد دون أن يستلزم أحدهما حدوث الأمر الآخر.

حين كتبت مسوّدَة هذا النصّ، شرعت بقراءته على عائلتي، حيث إنّي كنت أفعل ذلك أحيانا إذ أجمعهم طوعاً أو كرها لا فيد واستفيد، اعترضت زوجة ابني قائلة، لكن الحوادث السيئة تحدث بالفعل بعد الضحك الكثير.. أيّ أنّها لم تستجب - تقريبا - لأصل المشكلة، وهي أنّ ما كان يحدث بسبب «أوهام التزامن» وهذا طبيعي جدا.. لا يستطيع أي إنسان أن يتغيّر بمجرد الفهم بل يحتاج إلى الإيحاء بالمفهوم الجديد أي التصديق التام، ويحتاج أن يخالف العادات التي ألفتها نفسه بالتدرّج، كما ويحتاج إلى شيء مهم آخر وهو التذكير.. أي يذكر نفسه دائماً بان المفهوم السابق كاذب وإن صدق.

على أنّي لا استبعد أن يحصل «تزامن» بين الضحك الكثير والحوادث السيئة، ليس لأنّ حالة الضحك هذه تستلزم أو تشترط حصول الحوادث السيئة وإنّما يحصل ذلك لسبب آخر تماماً وهو طريقة التفكير الخاطئة والتصديق بها لدرجة الخوف منها وتوقع حصولها، وهذه الطريقة الخاطئة في التفكير هي التي تجلب تلك الحوادث السيئة، بحسب «قانون التجاذب» وليس التزامن الموهوم.

يقول القافزون :

❖ سواء توقعت الأشياء الإيجابية أو السلبية فهذا ما ستحصل عليه.

❖ المتفائلون محقّقون وكذلك المتشائمون، الأمر متوقف على ما تختار.

❖ الانسان هو ما يعتقدده.

فأن كنت تعتقد بأن هناك تزامن بين الضحك وحوادث السوء أو هناك تزامن بين الذكريات الجيدة والذكريات السيئة، فأنت ستجذب حياتك تلك الآثار السيئة والنتائج السلبية، وإن تمكنت من تجاوز عتبة هذا التزامن الوهمي بينهما ووضعك في حسابك أن لا علاقة لهذه بتلك، فأنت ذلك بالتحديد ما ستجذبه لحياتك.

تقول «روندا بايرن»: «إذا استطعت أن تفكر بشأن ما تريده في عقلك، وتجعل منه فكرتك المهيمنة، سوف تحقّقه كواقع في حياتك»⁽¹⁾.

وما يعنيه ذلك كله، هو أنّ عليك ان تحطّم الرابط الزمني «التلازم الشرطي» بين الذكريات الحسنة إذا ترافقت معها ذكريات سيئة، اذ تحطيم الرابط الزمني هذا يمكنك من استحضار لحظات الزمن الجميل مهما كانت قليلة تمهيدا لاستقطاب قوتها، ومن جهة ثانية تجاهل لحظات الزمن التعيس تمهد لتجميدها او افنائها ان تمكنت.

أفرز بين الأوقات..

أكسر حاجز التزامن..

لا تزامن بين الذكريات الجميلة وتلك إلا إذا أردت ان تبقى موجودة لا تكن كمن يزرع بيد ليقلع باليد الأخرى فإن فعلت فلن تفلح أبدا.

1- روندا بايرن - السر - ص 9.

لا تفسد الأمر.. لا تفسد اللحظة.

عش لحظات الفرح في ذكرياتك وكفى.

لا تساعد ذكرياتك المؤلمة بأن تقتل ذكرياتك الجميلة.

اتبع هذه القاعدة والتي اعتبرها من أسرار النجاح وقوته: «قوي لحظاتك الحاضرة وضاعف القوة لمستقبلك بخطوة واحدة هي استحضار لحظات الجمال في ماضيك القريب والبعيد».

وكن أكيدا بأن لحظات القوة والجمال قافزة بين الأزمان الثلاث: الماضي والحاضر والمستقبل، فخذ هذه القاعدة واطمن لك مقعدا بين مقاعد القافزين.



ما نظرحه هنا نوع من أنواع التحكم بالزمن بما يتضمنه من خصائص فريدة، إذ أنني ألمح هنا الى إمكانية قلب مفهوم السفر عبر الزمن، فمن المعلوم أن نظريات وتجارب وأبحاث متخصصة جرت ولا تزال في محاولة لايجاد وسيلة للسفر عبر الزمن سواء إلى الماضي أو المستقبل، ولم تزال هذه المشاريع مجرد خيال علمي لحد الآن..

إننا وفق نظرتنا نقول: بدل أن ينتقل الإنسان بواسطة آلة ليتنقل الى الزمن الذي يريد، فان الإنسان قادر على جلب الزمان الذي يريد إليه وقتما يشاء وفي أي لحظة يريد.. أي يستطيع ان يستحضر ساعة من يوم الأمس كما أنه يستطيع أن يستحضر يوماً كاملاً قبل خمس سنوات.. ونحن هنا لا

نغفل الفرق بين السفرين طبعاً، إذ بالوقت الذي يكون فيه السفر عبر الزمن بواسطة الآلة مشتملاً على الجانبين: الحسي والمعنوي، فإنّ عملية استحضار الزمن ستقتصر على الجانب المعنوي فحسب. فلنستفد من الممكن اذا.

فلنعبّر حافة السكين

«لن يتحقق أي شيء عظيم بدون رجال عطاء،
والرجال يكونون عطاء فقط إذا ما عزموا ان يكونوا
كذلك».

(1)

«الظروف» وتحكمها في حياة الناس، هو مجرد وهم آخر أوقع الناس
أنفسهم في أسرهم بحسب رؤى القافزين، فما يتحكم في حياة الإنسان فعلا هو
القرارات التي يتخذها أو لا يتخذها، يقول «انتوني روبنز»: «مسيرنا يتحدد في
اللحظات التي نتخذ فيها القرار. إنني أؤمن بأن القرارات - وليست ظروف
حياتنا - هي التي تحدد مصيرنا أكثر من أي شيء آخر»⁽²⁾.

بعد رؤيتك لهدفك، عليك ان تخطو الخطوة الاولى لتحقيقه وتلك
الخطوة هي: اتّخاذ قرار ما، مع ملاحظة أنّ لكل قرار قوة باطنة فيه، وسرّ
أعظم القرارات التي تتخذ يكمن في همة الالتزام بها بشكل تام وكلي.
أحد المحاربين العظام في التاريخ واجه وضعاً حتمّ عليه أن يتخذ قراراً
مصيبراً لا رجعة فيه ليحقق انتصاره في ساحة المعركة، فلم يتردد حين

1- شارل ديغول، (1890 - 1970)، جنرال ورجل سياسة فرنسي.

2- انتوني روبنز - خطوات عظيمة - مكتبة جرير - 2005 - ص 8.

شعر ان خطوته حادة كحافة السكين، بل حزم رأيه وأمر بتفريغ السفن من الرجال والعتاد وحرقتها.. وخاطب جنوده قائلاً: «البحر من ورائكم والعدو أمامكم.. لذلك لا خيار أمامكم سوى الفوز او الموت»⁽¹⁾، إنّه طارق بن زياد الذي ذاع صيته بعد اتخاذه ذلك القرار، فخلد اسمه على أثر ذلك بين أسماء القافزين.

إنّ الفرق بين الناس العاديين وبين القافزين هو أن القافزين يغلب عليهم اتّخاذ القرارات بسرعة، ونادراً ما يعيدون التفكير في أحد المواقف التي فكروا فيها جيداً، وعلى النقيض من ذلك، فان غيرهم عادة ما يأخذون القرارات ببطء، ويغيرون أفكارهم مراراً، خوفاً من بعب الفشل وخشية من ألم الإخفاق.. المخاوف التي يتوهمونها تحيط بحياتهم من هنا وهناك، ولذلك فإنّ البؤس لا يكاد يفارقهم، يقول «وليام جيمس»⁽²⁾: «ليس هناك من هو أكثر بؤساً من المرء الذي أصبح اللاقرار هو عادته الوحيدة»⁽³⁾، لذا أنّه بمجرد أن تتخذ أحد القرارات السليمة، التزم به.

لنقرأ معا لقصة قرار مصيري، لم يتعلق بحياة شخص بمفردة بل بمصير نبوءة خالدة..

محمد الفاتح، هو السلطان محمد الثاني(431هـ -1481م)، حكم ما

1- فيليكس جاكسون - فكر تصبغ غنيا - الدار العربية للعلوم ناشرون - 1999 - ص 35.
2- وليم جيمس (11 يناير 1842 - 26 أغسطس 1910) فيلسوف أمريكي ومن رواد علم النفس الحديث. كتب كتاباً مؤثرة في علم النفس الحديث وعلم النفس التربوي، وعلم النفس الديني والتصوف، والفلسفة البراغماتية.
3- انتوني روبنز - خطوات عظيمة - ص 16.

يقرب من ثلاثين عاماً كانت خيراً وعزة للمسلمين، وقد تولى حكم الدولة العثمانية بعد وفاة والده وكان عمره آنذاك اثنين وعشرين سنة.

في ذلك الوقت كانت القسطنطينية من أهم المدن العالمية، وقد كان لها موقع عالمي فريد حتى قيل عنها: «لو كانت الدنيا مملكة واحدة لكانت القسطنطينية أصلح المدن لتكون عاصمة لها»⁽¹⁾. ولاهيتها بشر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أصحابه بفتحها في عدة مواقف، ولهذا فقد تنافس خلفاء المسلمين وقادتهم على فتحها عبر العصور المختلفة طمعاً في أن يتحقق فيهم حديث الرسول عليه الصلاة والسلام: «لتفتحن القسطنطينية على يد رجل، فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش»⁽²⁾. ولم تنجح الحملات المتكررة عليها.

تأثر محمد الفاتح بالعلماء الربانيين منذ طفولته ومن أخصهم العالم الرباني «أحمد بن إسما عيل الكوراني» المشهود له بالفضيلة التامة، وبرز دور العارف بالله الشيخ «آق شمس الدين»⁽³⁾ في تكوين شخصية محمد الفاتح وبث فيه

1- د. محمد مصطفى - فتح القسطنطينية وسيرة السلطان محمد الفاتح - الجمعية المصرية للدراسات التركية - ص 36 - 46.

2- التويجوري - إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراف الساعة - دار الصميعة للنشر والتوزيع، الرياض - المملكة العربية السعودية - ط 2 - 1414 ج 1 ص 402

3- الشيخ آق شمس الدين بن حمزة (792هـ، 1330م - 1459م). ولد في دمشق، وحفظ القرآن الكريم وهو ابن 7 أعوام في مدارس دمشق وتعلم في أماسيا، وحب، وأنقرة. كان من معلمي الأمير محمد الفاتح، علمه القرآن والفقه والرياضيات والفلك والتاريخ. شارك في غزو القسطنطينية وسمى من قبل البعض الفاتح المعنوي لها.

منذ صغره على الشجاعة التامة والاقدام ببسالة حين يتردد الأبطال، وكانت تربيته الروحية مرتبطة بحديث فتح القسطنطينية، ولذلك نشأ الفاتح وهو يحلم بذلك ثم تحول بفعل شيخه إلى هدف حقيقي.

ما قام به الشيخ «آق شمس الدين» هو بث روح التحفيز في نفس محمد الفاتح فكان ذلك سببا ليكون من أكابر القافزين الذين عرفتهم الأمة الإسلامية.

يقول الدكتور ابراهيم الفقي⁽¹⁾: «إنّ كل أفعالك أياً كانت هويتك، أو أياً كانت الوظيفة التي تشغلها تصدر عن عنصر التحفيز بداخلك سواء كان هذا التحفيز إيجابياً أو سلبياً».

ويقول «آرش فروم»⁽²⁾: «إنّ المهمة الأساسية التي تقع على عاتق المرء في حياته، هي أن يحدث ويحفز ذاته، إنك عندما تكون محفزاً فإن مستوى أدائك يكون في القمة والعكس صحيح».

يقال: «الأعمال العظيمة تتحقق ليس بالقوة إنما بالإصرار» وهذا ما كان يستشعره جميع من يحيط بالفاتح إنه الإصرار، والذي ظهر أكثر من ما ظهر في عنايته بجمع الأسلحة اللازمة لفتح القسطنطينية، ومن أهمها المدافع التي أخذت اهتماماً خاصاً منه حيث أحضر مهندساً مجرباً يدعى «أوربان» كان بارعاً في صناعة المدافع فأحسن استقباله ووفر له جميع الإمكانيات المالية والمادية والبشرية، وقد تمكن هذا المهندس من تصميم وتنفيذ العديد

1- إبراهيم الفقي: خبير التنمية البشرية والبرمجة اللغوية العصبية.

2- عالم نفس وفيلسوف إنساني ألماني أمريكي.

من المدافع الضخمة كان على رأسها المدفع السلطاني المشهور، والذي ذكر أنّ وزنه كان يصل إلى مئات الأطنان وأنه يحتاج إلى مئات الثيران القوية لتحريكه، وقد أشرف السلطان بنفسه على صناعة هذه المدافع وتجريبها⁽¹⁾. وفي الوقت نفسه بذل الفاتح عناية خاصة بالأسطول العثماني حيث عمل على تقويته وتزويده بالسفن المختلفة ليكون مؤهلاً للقيام بدوره في الهجوم على القسطنطينية، تلك المدينة البحرية التي لا يكمل حصارها دون وجود قوة بحرية تقوم بهذه المهمة وقد ذكر أنّ السفن التي أعدت لهذا الأمر بلغت أكثر من أربعمئة سفينة⁽²⁾.

في هذه الأثناء التي كان السلطان يعد العدة فيها للفتح استمات الإمبراطور البيزنطي في محاولاته لثنيه عن هدفه، بتقديم الأموال والهدايا المختلفة إليه، وبمحاولة رشوة بعض مستشاريه، ليؤثروا على قراره، ولكن السلطان كان عازماً على تنفيذ مخططه ولم تتنه هذه الأمور عن هدفه⁽³⁾.

يقال: «إنك ببساطة لا تستطيع أن تهزم الشخص الذي لا يستسلم».

كانت القسطنطينية محاطة بالمياة البحرية في ثلاث جهات، مضيق البسفور، وبحر مرمرة، والقرن الذهبي، وكانت من الناحية العسكرية تعد من أفضل مدن العالم تحصيناً، لما عليها من الأسوار والقلاع والحصون

1- عبد العزيز بن ابراهيم العمري - الفتوح الاسلامية عبر العصور - مركز الدراسات والإعلام - 1997 - ص 361.

2- سالم الرشيدى - محمد الفاتح - مكتبة لبنان ناشرون - 1989 - ص 9.

3- محمد صفوت - فتح القسطنطينية - دار الفكر العربي للطباعة والنشر - 1948 - ص 69.

إضافة إلى التحصينات الطبيعية، وبالتالي فإنه يصعب اختراقها، ولذلك فقد استعصت على عشرات المحاولات العسكرية لاقتحامها ومنها إحدى عشرة محاولة إسلامية سابقة.

في يوم الخميس الموافق 6 أبريل 1453م، تمركز جيش الفاتح قبالة القسطنطينية وفي اليوم التالي قام السلطان بتوزيع جيشه البري أمام الأسوار الخارجية للمدينة، مشكلاً ثلاثة أقسام رئيسية تمكنت من إحكام الحصار البري حول مختلف الجهات، كما أقام الفاتح جيوشاً احتياطية خلف الجيوش الرئيسية، وعمل على نصب المدافع أمام الأسوار، ومن أهمها المدفع السلطاني العملاق.

وحاول البيزنطيون أن يبذلوا قصارى جهدهم للدفاع عن القسطنطينية ووزعوا الجنود على الأسوار.

وكانت المدفعية العثمانية تطلق مدافعها من مواقع مختلفة نحو المدينة، وكان لقتائفها ولصوتها الرهيب دور كبير في إيقاع الرعب في قلوب البيزنطيين وقد تمكنت من تحطيم بعض الأسوار حول المدينة، ولكن المدافعين كانوا سرعان ما يعيدون بناء الأسوار وترميمها.

حاولت القوات البحرية العثمانية تخطي السلسلة الضخمة التي تتحكم في مدخل القرن الذهبي والوصول بالسفن الإسلامية إليه، وأطلقوا سهامهم على السفن الأوروبية والبيزنطية ولكنهم فشلوا في تحقيق مرادهم في البداية وارتفعت الروح المعنوية للمدافعين عن المدينة.

حاول الإمبراطور البيزنطي أن يغري الفاتح بالانسحاب مقابل الأموال

أو الطاعة، أو غير ذلك من العروض التي قدمها، ولكن الفاتح رحمه الله يرد بالمقابل طالباً تسليم المدينة تسليماً، وأنه في هذه الحالة لن يتعرض أحد من أهلها ولا كنائسها للأذى، وكان مضمون الرسالة: «فليسلم لي إمبراطوركم مدينة القسطنطينية وأقسم بأن جيشي لن يتعرض لأحد في نفسه وماله وعرضه ومن شاء بقي في المدينة وعاش فيها في أمن وسلام ومن شاء رحل عنها حيث أراد في أمن وسلام أيضاً»⁽¹⁾.

يقول احد القافزين: «السّرّ في تحقيق النصر لا يكمن في أن تكون ذكياً جداً، بل يكمن في أنّك لا تستسلم بسهولة».

ويقول آخر: «ضع في ذهنك أن إصرارك على النجاح هو أهم من أي شيء آخر، ولسوف تنجح».

كان الحصار لا يزال ناقصاً ببقاء مضيق القرن الذهبي في أيدي البحرية البيزنطية، ومع ذلك فإنّ الهجوم العثماني كان مستمراً دون هوادة، وفي يوم 18 أبريل تمكنت المدافع العثمانية من فتح ثغرة في الأسوار البيزنطية عند وادي ليكوس في الجزء الغربي من الأسوار، فاندفع إليها الجنود العثمانيون بكلّ بسالة محاولين اقتحام المدينة من الثغرة، كما حاولوا اقتحام الأسوار الأخرى بالسلام التي ألقوها عليها، ولكن المدافعين عن المدينة بقيادة جستينيان استماتوا في الدفاع عن الثغرة والأسوار، واشتد القتال بين الطرفين، وكانت الثغرة ضيقة وكثرة السهام والنبال والمقذوفات على الجنود المسلمين، ومع ضيق المكان وشدة مقاومة الأعداء وحلول الظلام

1- عبد السلام فهمي - محمد الفاتح - دار القلم - 1975 - ص 92.

أصدر الفاتح أوامره للمهاجمين بالانسحاب بعد أن أثاروا الرعب في قلوب أعدائهم متحينين فرصة أخرى للهجوم. وفي اليوم نفسه حاولت بعض السفن العثمانية اقتحام القرن الذهبي بتحطيم السلسلة الحاجزة عنه، ولكن السفن البيزنطية والأوروبية المشتركة، إضافة إلى الفرق الدفاعية المتمركزة خلف السلسلة الضخمة من المدافعين عن مدخل الخليج، استطاعوا جميعاً من صد السفن الإسلامية وتدمير بعضها، فاضطرت بقية السفن إلى العودة بعد أن فشلت في تحقيق مهمتها.

بعد هذه المعركة بيومين وقعت معركة أخرى بين البحرية العثمانية وبعض السفن الأوروبية التي حاولت الوصول إلى الخليج، حيث بذلت السفن الإسلامية جهوداً كبيرة لمنعها، وأشرف الفاتح بنفسه على المعركة من على الساحل لكن السفن الأوروبية نجحت في الوصول إلى هدفها ولم تتمكن السفن العثمانية من منعها، رغم الجهود العظيمة المبذولة لذلك.

لقد ذكرت كتب التاريخ أن السلطان محمد الفاتح كان يراقب هذه المعارك البحرية وهو على جواده وقد اندفع نحو البحر حتى غاص حصانه إلى صدره وكانت السفن المتقاتلة على مرمى حجر منه فأخذ يصيح لبطله أوغلي بأعلى صوته: يا قبطان، يا قبطان، ويلوح له بيده، وضاعف العثمانيون جهودهم في الهجوم دون أن يؤثر في السفن تأثيراً كبيراً⁽¹⁾.

كانت الهزائم البحرية للأسطول العثماني دوراً كبيراً في محاولة بعض مستشاري السلطان وعلى رأسهم الوزير خليل باشا إقناعه بالعدول عن

1- سالم الرشيدى - محمد الفاتح - ص 101.

الاستيلاء على القسطنطينية والرضا بمصالحة أهلها دون السيطرة عليها وبالتالي رفع الحصار عنها. ولكن السلطان أصرّ على محاولة الفتح واستمر في قصف دفاعات المدينة بالمدافع من كل جانب، وفي الوقت نفسه كان يفكر بجديّة في إدخال السفن الإسلامية إلى القرن الذهبي، خصوصاً وأنّ الأسوار من ناحية القرن الذهبي متهاوية، وبالتالي سيضطر البيزنطيون إلى سحب بعض قواتهم المدافعة عن الأسوار الغربية من المدينة وبهذا التفريق للقوات المدافعة ستتهياً فرصة أكبر في الهجوم على تلك الأسوار بعد أن ينقص عدد المدافعين عنها.

إنّ موقف الفاتح هذا يترجم لنا ترجمة حية قواعد النجاح التي يقول بها القافزون، ومنها :

❖ اجعل من حياتك ناجحة من خلال التصويب على الهدف بدون كلل.

❖ النجاح هو قوة الرجوع بعد السقوط.

❖ الناس الناجحون يستمرون في المسير عندما يهزم الآخرون.

❖ فقط من يتجرأ على المضي قدماً يستطيع أن يبلغ مبتغاه.

❖ إنّ من لا يواجه التحديات لا يعمل شيئاً.

❖ السرّ لا يكمن في عدم السقوط، بل السر يكمن في النهوض كلما

سقطنا من جديد، وتكرار المحاولة بطريقة جديدة.

واخيراً قولهم: كثيراً مما تتنكر الفرص بثياب المصاعب.

وهكذا لاحت للسلطان فكرة بارعة وهي نقل السفن من مرساها إلى

القرن الذهبي، وذلك بجرها على الطريق البري الواقع بين الميناءين، وقد

كانت المسافة نحو ثلاثة أميال، ولم تكن أرضاً مبسوطة سهلة ولكنها كانت وهادئاً وتلالاً غير ممهدة.

بدأ تنفيذ الخطة، وأمر الفاتح فمهدت الأرض وسويت في ساعات قليلة وأتى بالوواح من الخشب دهنت بالزيت والشحم، ثم وضعت على الطريق الممهّد بطريقة يسهل بها انزلاج السفن وجرها، وكان أصعب جزء من المشروع هو نقل السفن على انحدار التلال المرتفعة⁽¹⁾.

وجرت السفن من البحر إلى البر حيث سحبت على تلك الأخشاب المدهونة بالزيت مسافة ثلاثة أميال، حتى وصلت إلى نقطة آمنة فأنزلت في القرن الذهبي، وتمكن العثمانيون في تلك الليلة من سحب أكثر من سبعين سفينة وإنزالها في القرن الذهبي على حين غفلة من العدو، بطريقة لم يسبق إليها السلطان الفاتح قبل ذلك، وقد كان يشرف بنفسه على العملية التي جرت في الليل بعيداً عن أنظار العدو ومراقبته⁽²⁾.

كان هذا العمل عظيماً بالنسبة للعصر الذي حدث فيه بل معجزة من المعجزات، تجلّى فيه سرعة التفكير وسرعة التنفيذ. لقد دهش الروم دهشة كبرى عندما علموا بها، فما كان أحد ليستطيع تصديق ماتم. لكن الواقع المشاهد جعلهم يذعنون لهذه الخطة الباهرة.

ولقد كان منظر هذه السفن بأشرعتها المرفوعة تسير وسط الحقول

1- عبدالسلام فهمي - السلطان محمد الفاتح - ص 100.

2- عبد العزيز بن ابراهيم العمري - الفتوح الاسلامية عبر العصور - مركز الدراسات والإعلام 1997 - ص 370.

كما لو كانت تمخر عباب البحر من أعجب المناظر وأكثرها إثارة ودهشة. ويرجع الفضل في ذلك الى الله سبحانه وتعالى ثم إلى همة السلطان وذكائه المفرط، وعقليته الجبارة، وإلى مقدرة المهندسين العثمانيين، وتوفر الأيدي العاملة التي قامت بتنفيذ تلك الفكرة الضخمة بحماس ونشاط، وقد تمّ كل ذلك في ليلة واحدة واستيقظ أهل المدينة البائسة صباح يوم 22 أبريل على تكبيرات العثمانيين المدوية، وهتافاتهم المتصاعدة، وأناشيدهم الإيمانية العالية، في القرن الذهبي، وفوجئوا بالسفن العثمانية وهي تسيطر على ذلك المعبر المائي، ولم يعد هناك حاجز مائي بين المدافعين عن القسطنطينية وبين الجنود العثمانيين.

ولقد عبّر أحد المؤرخين البيزنطيين عن عجبهم من هذا العمل فقال: ما رأينا ولا سمعنا من قبل بمثل هذا الشيء الخارق، محمد الفاتح يحول الأرض إلى بحار وتعب سفنه فوق قمم الجبال بدلاً من الأمواج، لقد فاق محمد الثاني بهذا العمل الأسكندر الأكبر⁽¹⁾.

وهنا تتجلى كوكبة أخرى من رؤى القافزين :

❖ في كل شيء تقوم به تحتاج الى الشجاعة، ففي كل عمل تقوم به هنالك من يقول لك أنت مخطئ. وهناك الكثير من المصاعب التي تجعلك تعتقد بذلك. والشجاعة وحدها كفيلة بالتغلب على ذلك.

❖ النجاح هو ليس منع ظهور أي عوائق، بل التغلب عليها كلما ظهرت.

1- يلماز أوزنتونا - تاريخ الدولة العثمانية دار التوزيع والنشر الاسلامية - 2001 - ص 135.

❖ لا أقيس مدى نجاح انسان بما هو مدى تسلقه، بل بمدى ما وصل اليه عن جديد بعد أن سقط.

❖ اذا لم تستسلم، ولم تغش، ولم تهرب عندما واجهتك المشاكل، عندها فقط يمكنك الفوز.

❖ النجاح لا يقاس بما حققه الانسان بل بمقدار المصاعب التي تغلب عليها قبل أن ينجح.

❖ الناس الذين حققوا أشياء عظيمة هم الناس الذين تجرؤا على الإقدام على ذلك.

❖ قوتنا تكمن في قدرتنا على اتخاذ قرار.

❖ النجاح يحققه فقط الذين يواصلون المحاولة بنظرة ايجابية للأشياء.

❖ سوف نقوم بأقصى جهدنا لتحقيق أهدافنا، وإذا لم ننجح سوف نغير الطريقة.

كان لوجود السفن الاسلامية في القرن الذهبي دورٌ كبيرٌ في إضعاف الروح المعنوية لدى المدافعين عن المدينة الذين اضطروا لسحب قوات كبيرة من المدافعين عن الأسوار الأخرى لكي يتولوا الدفاع عن الأسوار الواقعة على القرن الذهبي إذ إنها كانت أضعف الأسوار، ولكنها في السابق تحميها المياه، مما أوقع الخلل في الدفاع عن الأسوار الأخرى.

وكان السلطان محمد - رحمه الله - يُفاجئ عدوه من حين لآخر بفن جديد من فنون القتال والحصار، وحرب الأعصاب وبأساليب جديدة وطرق حديثة مبتكرة غير معروفة للعدو. ففي المراحل المتقدمة من الحصار

لجأ العثمانيون إلى طريقة عجيبة في محاولة دخول المدينة حيث عملوا على حفر أنفاق تحت الأرض من مناطق مختلفة إلى داخل المدينة وسمع سكانها ضربات شديدة تحت الأرض أخذت تقترب من داخل المدينة بالتدريج، فأسرع الامبراطور بنفسه ومعه قواده ومستشاروه إلى ناحية الصوت وأدركوا أن العثمانيين يقومون بحفر أنفاق تحت الأرض، للوصول الى داخل المدينة، فقرر المدافعون الإعداد لمواجهتها بحفر أنفاق مماثلة مقابل أنفاق المهاجمين لمواجهتهم دون أن يعلموا، حتى إذا وصل العثمانيون الى الأنفاق التي أعدت لهم ظنوا أنهم وصلوا إلى سرايب خاصة وسرية تؤدي الى داخل المدينة ففرحوا بهذا، ولكن الفرحة لم تطل إذ فاجأهم الروم، فصبوا عليهم ألسنة النيران والنفط المحترق والمواد الملتهبة، فأختنق كثير منهم واحترق قسم آخر وعاد الناجون منهم أدراجهم من حيث أتوا.

لكن هذا الفشل لم يفت في عضد العثمانيين، فعاودوا حفر أنفاق أخرى، وفي أماكن ملائمة للقيام بمثل هذا العمل، وظلوا على ذلك حتى أواخر أيام الحصار وقد أصاب أهل القسطنطينية من جراء ذلك خوف عظيم وفرع لا يوصف حتى صاروا يتوهمون أن أصوات أقدامهم وهم يمشون هي أصوات خفية لحفر يقوم به العثمانيون، وكثيراً ما كان يخيل لهم أن الأرض ستنتشق ويخرج منها الجند العثمانيون ويملؤون المدينة، فكانوا يتلفتون يمنة ويسرة، ويشيرون هنا وهناك في فرع، وهكذا داخل سكان القسطنطينية فرع شديد أذهب وعيهم، حتى لكأنهم سكارى وماهم بسكارى، فريق يجري، وفريق يتأمل السماء، ومجموعة تتفحص الأرض، والبعض ينظر في وجوه البعض الآخر في عصبية زائدة وفشل ذريع.

ولم يكن عمل العثمانيين هذا سهلاً، فأنّ هذه الانفاق التي حفروها قد أودت بحياة كثير منهم، فماتوا اختناقاً واحترقاً في باطن الأرض، كما وقع الكثير منهم في بعض هذه المحاولات في أسر الروم وقطعت رؤسهم⁽¹⁾.
يقول القافزون :

❖ الكثير من الناس لا يعطون النجاح محاولة أخرى. يفشلون مرة وينتهي الأمر عندها. الكثيرون لا يتحملون ضربات الفشل المؤلمة. لكن إن كنت على استعداد أن تتقبل الفشل وأن تتعلّم منه وأن تعتبره خطوة إلى الأمام، فإنّك بذلك تكون قد تعلمت أهم مسببات النجاح.

❖ ليس هناك شيء أهم من المثابرة لتحقيق النجاح، انها تهزم كل الصعاب.

❖ الأسرار الخمسة للنجاح: التّركيز، التّمييز، التّنظيم، التّطوير، والتّواصل.

❖ لكي تنجح يجب عليك فعل الأشياء التي تظن أنك لا تستطيع فعلها.

❖ سر النجاح هو في إكمال المهمة حتى النهاية.

❖ الطريق نحو النجاح هو القيام بمبادرات كبيرة.

❖ لكي تنجح عليك أن تعطي أكثر من اللازم.

❖ الطريق نحو النجاح هي طريق تصاعديّة.

ولهذا لجأ الفاتح إلى أسلوب جديد في محاولة الاقتحام وذلك بأن أمر بصنع قلعة خشبية ضخمة متحركة تتكون من ثلاثة أدوار، وبارتفاع أعلى من الأسوار، وقد كسيت بالدروع والجلود المبللة بالماء لتمنع عنها

1- عبد السلام فهمي - السلطان محمد الفاتح - ص 110.

النيران، وأعدت تلك القلعة بالرجال في كل دور من أدوارها، وكان الذين في الدور العلوي من الرماة يقذفون بالنبال كُلٌّ من يطل برأسه من فوق الأسوار، وقد وقع الرعب في قلوب المدافعين عن المدينة حينما زحف العثمانيون بهذه القلعة واقتربوا بها من الأسوار عند باب رومانوس، فاتَّجه الإمبراطور بنفسه ومعه قواده ليتابع صد تلك القلعة ودفعها عن الأسوار، وقد تمكن العثمانيون من لصقها بالأسوار ودار بين من فيها وبين النصارى عند الأسوار قتال شديد واستطاع بعض المسلمين مَن في القلعة تسلق الأسوار ونجحوا في ذلك، وقد ظن قسطنطين أن الهزيمة حلَّت به، إلاَّ أن المدافعين كثفوا من قذف القلعة بالنيران حتى أثرت فيها وتمكنت منها النيران فاحترقت، ووقعت على الأبراج البيزنطية المجاورة لها فقتلت من فيها من المدافعين، وامتلاء الخندق المجاور لها بالحجارة والتراب.

هنا تظهر الشجاعة والإصرار والاقدام من النماذج النادرة والفريدة بين صناع النجاح والتميز، اذ قال الفاتح وكان يشرف بنفسه على مواقع: غداً نصنع أربعاً أخرى⁽¹⁾.

قيل:

- ❖ رجل واحد شجاع هو أكثرية.
- ❖ الناجحون والفاشلون لا يختلفون كثيراً في قدراتهم، إنما يختلفون كثيراً في رغبتهم في تحقيق الهدف.
- ❖ الحماس الملتهب مع الإصرار الجامح هو ما يحقق لك النجاح.

1- سالم الرشيدى محمد الفاتح - ص 144.

❖ عليك أن تواجه كل ما يحدث بأفضل الوسائل التي تمتلكها.

❖ الشجاعة هي المفتاح الرئيسي لتحقيق النجاح في الحياة.

عمد السلطان بعد إلى تكثيف الهجوم وخصوصاً القصف المدفعي على المدينة، حتى أنّ المدفع السلطاني الضخم انفجر من كثرة الاستخدام، وقتل المشتغلين له وعلى رأسهم المهندس المجري أوربان الذي تولى الإشراف على تصميم المدفع، ومع ذلك فقد وجه السلطان بإجراء عمليات التبريد للمدافع بزيت الزيتون، وقد نجح الفنيون في ذلك، وواصلت المدافع قصفها للمدينة مرة أخرى، بل تمكنت من توجيه القذائف بحيث تسقط وسط المدينة بالإضافة إلى ضربها للأسوار والقلاع.

ثم عقد السلطان محمد الفاتح اجتماعاً ضمّ مستشاريه وكبار قواده بالإضافة إلى الشيوخ والعلماء، وقد طلب الفاتح من المجتمعين الإدلاء بآرائهم بكلّ صراحة دون تردد، فأشار بعضهم بالانسحاب ومنهم الوزير خليل باشا الذي دعا إلى الانسحاب وعدم إراقة الدماء والتّحذير من غضب أوروبا النصرانية فيما لو استولى المسلمون على المدينة، إلى غير ذلك من المبررات التي طرحها، وكان متهماً بمواطئة البيزنطيين ومحاولة التخذيل عنهم. وقد قام بعض الحضور بتشجيع السلطان على مواصلة الهجوم على المدينة حتى الفتح واستهان بأوروبا وقواتها.

فما كان من السلطان إلا أن اشعل نار الحماسة في قلوب قواده وحّثهم على بذل كلّ ما تبقى عندهم من طاقة حتى تحقيق النصر الأكيد.

يقول احدهم: «أحبّ دائماً أن يقول لي الناس أنك لا تستطيع أن تفعل ذلك، لأنهم كلّما يقولون لي ذلك، أعمله بجدارة» وهذه من مميزات القافزين.

عند الساعة الواحدة صباحاً من يوم الثلاثاء الموافق 29 مايو 1435م بدأ الهجوم العام على المدينة بعد أن أصدرت الأوامر للمجاهدين الذين علّت أصواتهم بالتكبير وانطلقوا نحو الأسوار، وخاف البيزنطيون خوفاً عظيماً، وتمكن المسلمون من الاستيلاء على المدينة وكان الفاتح رحمه الله مع جنده في تلك اللحظات يشاركونهم فرحة النصر، ولذّة الفوز بالعلبة على الأعداء من فوق صهوة جواده وكان قواده يهتفون وهو يقول: الحمد لله ليرحم الله الشهداء ويمنح المجاهدين الشرف والمجد ولشعبي الفخر والشكر.



يقول أحدهم: «عندما درست حياة العظماء من الرجال والنساء وجدت أنهم الأشخاص الذين حولوا ما بأيديهم بالوسائل التي يمتلكونها الى الأشياء التي يريدونها».

ويقول «بيتر دراكر»⁽¹⁾: «إنّ الناجحين يتخذون القرارات المصيرية في حياتهم في وقت مبكر ويديرونها يومياً».

فتذكّر، أنّ غيرك إذا استطاع القفز فوق جميع التوقعات ليتربع على عرش

1- كاتب في مجال الإدارة، ومستشار إداري. يصف نفسه «اختصاصي في البيئة الاجتماعية». يعتبره الكثيرون أب علم الإدارة الحديث.

النصر فأنت أيضا قادر وبامكاناتك المتواضعة أن تقفز فوق عرش النجاح الذي تريد، وما هي إلا خطوة واحدة ولسوف تعبر من فوق حافة السكين. تلك الخطوة هي لحظة القرار لأنها لحظة مصيرية لتحقيق النجاح. يقال: «أنها القرارات البسيطة التي نتخذها أنا وأنت، هي التي تصنع مصائرنا».

بيضة القبان

«أنا لا أريد ما يريدني الآخرون أن أكون، بل أريد أن أكون ما تريده نفسي بأن أكونه».

في بعض الأحيان لا تتوافق الرغبة مع الاستعداد، فقد نحلم بأن تسير حياتنا في اتجاه معين في الوقت الذي تكون فيه استعداداتنا أو مواهبنا متمحورة حول اتجاه آخر تماما..

كنت أتمنى أن أكون طبيبا، فقد كان هذا حلم أهلي، مع أن مستواي في الدراسة متوسط، ولم أنجح في مادة اللغة الأنكليزية في كافة المراحل إلا بشق النفس، ومع هذا كان الجو الاجتماعي يضغط عليّ للسير في هذا الاتجاه بوعي مني أو بدون وعي.. بالتأكيد لم أستطع الحصول على المعدل الذي يؤهلني لدخول كلية الطب، وحدثت متغيرات كثيرة في حياتي، كنت خلالها أحاول تلمس المهنة التي تكفل لي الحياة الكريمة.. وخلال سنوات طويلة ما بين تقليبي بين حوادث الزمان، كان هناك شيء وحيد لم يفارقني ابدا، المطالعة والكتابة.

كنت منذ نعومة أظافري أهوى القراءة بشكل كبير، وكنت ادّخر

مصروفي اليومي، لأشترى المجلات ومن ثم الكتيبات حتى انتقلت لاقتناء الكتب والموسوعات..

ما تهواه نفسي هو المعرفة بشتى صورها وأشكالها، ولكن في مجتمعاتنا، ليس لهذه الهواية حاضر ولا مستقبل إلا لمن شاء ربك وقفز قفزة عظيمة في غفلة من الزمن وأنى لي بمثل هذه القفزة..

على إن الأيام دارت دورتها، ووجدتني بعد أن امتهنت عددا لا بأس به من المهن، أعود بعد اللف والدوران لما خلقت له؛ أعود للقراءة والكتابة.. وقد صدق الصادق الأمين سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام حين قال: «..فَكُلُّ مُسَيَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ»⁽¹⁾، أي مهياً له. لهذا أقول ان على الإنسان ان يحاول معرفة طريقة في الحياة من خلال معرفته لنفسه أولاً.. فهذا يوفر عليه الجهد الوقت والمال وحتى المشاعر والأحاسيس..

القافرون بالنظر لهذا السياق صنفان:

صنف يعرف نفسه، أي يعرف موهبته وما يستطيع ان يبذل فيه، فيتجه لها من فوره ولا يضيع الزمن في دوائر مفرغة، فيمتهن ما يهوى، ويهوى ما يمتهن. وقد وصفهم احدهم بقوله: «الفائزون هم الذين يستمعون دائما الى حقيقة قلوبهم». وصنف لا يعرف نفسه الا بعد حين، وهذا يستطيع ان يعوض ما فات حتى ولو بلغ من العمر عتيا.

1- صحيح البخاري - تحقيق محمد زهير - دار طوق النجاة - ط 1- 1422، ج 6 ص 171.

يقدم أحد القافزين نصيحة لمن لم ينتبه لمعرفة نفسه الا بعد حين فيقول له: «لا تمكث كثيرا في الماضي، استعمل الماضي لاستيضاح نقطة معينة، ثم تجاوزه، لا شيء يهم حقا سوى ما تقوم به في هذه اللحظة، انطلاقا من هذه اللحظة يمكنك أن تصبح إنساناً مختلفاً كلياً، مليء بما تريد، جاهز بيد ممدودة نحو النجاح، منتش وإيجابي في كل فكرة وفعل تقوم به».

لقد كان الكاتب المصري المعروف «مصطفى كمال محمود» أحد الذين ابتعدوا عما خلقوا له، ثم أنه لما عرف نفسه وعرف طريقه في الحياة قفز بطريقة تثير الاعجاب والفخر، فلندعه يروي لنا قصته بنفسه :

قال: «أنا مصطفى كمال محمود حسين، المولد في 25 ديسمبر 1921، الأسرة متوسطة والأب موظف - سكرتير في مديرية الغربية - رسبت ثلاث سنوات في السنة الأولى الابتدائية فتركني الأهل علي حالي دون تغليظ أو تعنيف، كنت كثيراً ما أرقد مريضاً وأنا طفل.. ولذلك حرمت من اللعب العنيف والانطلاق الذي يتمتع به الأطفال.. وكانت طفولتي كلها أحلاماً وخيالاتاً وانطواءً، وكنت دائماً أحلم وأنا طفل بأن أكون مخترعاً عظيماً أو مكتشفاً أو رجلاً أو عالماً مشهوراً، وكانت النماذج التي أحلم بها هي كريستوفر كولمبس وأديسون وماركوني وباستير. وكانت الحياة في طنطا في جوار السيد البدوي وحضور حلقات الذكر والمولد والناي ومذاق القراقيش وابتهالات المتصوفة والدرأويش، كان لها أثر في تكويني الفني والنفسي».

وهذا شأن جميع القافزين.. الحلم.. الهدف.. الخيال.. التفكير الإيجابي.. يقول أحدهم: «كلّ شيء تحلم به، وتتوق إليه بشدة، وتعتقد به بإخلاص، وتعمل للحصول عليه لا محالة سوف يتحقق».

ويكمل صاحبنا فيقول: «كان مرض الوالد بالشلل لمدة سبع سنوات ووفاته سنة 1939م حينما أكملت دراستي الثانوية وقررت دخول كلية الطب. وانتقلنا بعد ذلك من طنطا إلى القاهرة مع الوالدة، وكانت الدراسة صعبة وتحتاج إلى إرادة وتركيز ونوع من الانقطاع والرهابية.. واحتاج الأمر مني إلى عزم وترويض ومعاناة.. وكان حبي للعلم وطموحي يساعدي، وكانت صحتي الضعيفة تحذلني.. وبدني المعتل يضطرنني إلى الاعتكاف من وقت لآخر في الفراش.

وفي السنة الثالثة طب احتاج الأمر إلى علاجي بالمستشفى سنتين وأدى هذا الانقطاع الطويل إلى تطور إيجابي في شخصيتي، إذ عكفت طول هذه المدة على القراءة والتفكير في موضوعات أدبية، وفي هاتين السنتين تكونت في داخلي شخصية المفكر المتأمل وولد الكاتب الأديب، وحينما عدت إلى دراسة الطب بعد شفائي كنت قد أصبحت شخصاً آخر، أصبحت الفنان الذي يفكر ويحلم ويقراً ويطلع بانتظام أمهات كتب الأدب والمسرح والرواية، وبسبب هذه الهواية الجديدة التي ما لبثت أن تحولت إلى احتراف وكتابة منتظمة في الصحف في السنوات النهائية بكلية الطب، احتاج الأمر وقتاً مضاعفاً لكي أنجح وأتخرج.

بدأت أكتب في مجلتي التحرير وروز اليوسف، وحينما تخرجت في سنة 1953 كان زملائي قد سبقوني في التخرج بستين وثلاثة، وأستطيع أن أقول إن المرض والمعاناة والعزلة الطويلة في غرف المستشفيات قد فجرت مواهبي. والألم كان الأب الحقيقي والباعث لكل هذه الإيجابيات والمكاسب التي كسبتها كإنسان وفنان وأديب ومفكر، والألم أيضاً هو الذي صقل أخلاقي وجلا معدن نفسي وفجر الحس الديني في داخلي وكان أداة التنوير والصحوّة والتذكير بالله.

رحلتي من الشك إلى الإيمان لم تكن بسبب إنكار أو عناد أو كفر إنما كانت إعادة نظر منهجية حاولت أن أبدأ فيها من جديد بدون مسلمات موروثية، ولم أفقد صلتي بالله طوال هذه الرحلة.. وإن كنت قد بدأت قطار الفكر وقطار الدين من أوله منذ الصفحة الأولى.. من مبدأ الفطرة.. وماذا تقوله الفطرة بدون موروثات؟.

لقد سلك كاتبنا الطريق الذي يتحتم على كلّ قافز أن يسلكه، وهو ان يتجرّد من كلّ معرفة موروثية وأخذ ينقش في ذاته الحقائق حرفا حرفا مستندا الى تجربة شخصية، لا ينجو منها الى برّ الأمان الى من كان ذو همّة عالية، تحيط بها عين العناية والرعاية..

هكذا هو شأن القافزين.. لا يفكرون كما يفكر الناس، فلا يقيدهم صندوق ولا يحصرهم نموذج فكري.. يقول أحدهم: «الإنسان الذي يتبع الجماهير سوف لن ينتهي به الأمر أبعد من الجماهير، بينما الانسان الذي يمشي وحيدا هو الانسان الأكثر ترجيحاً لبلوغ أماكن لم يبلغه أحد قبله».

وقد كانت ثمرة الطريق الذي سلكه كاتبنا وافرة، اذ يقول: « نشر لي 89 كتاباً، بينها ست مسرحيات مثلت على المسرح؛ الزلزال.. الإنسان والظل... إسكندر الأكبر... الزعيم.. أنشودة الدم.. شلّة الأُنس.. الشيطان يسكن في بيتنا، ورواية ظهرت في السينما (المستحيل)... وخمسة وعشرون كتاباً في الإسلاميات وثلاث روايات طويلة والباقي دراسات وقصص قصيرة. وقدمت للتلفزيون أكثر من أربعمئة حلقة من برنامج العلم والإيمان وهو برنامج يتخذ من الصورة والمادة العلمية والتأمل الصوفي مدخلاً إلى الإيمان بالله».

إن أجمل ما في القافزين انهم يعرفون ما يريدون ولا يجهلون الخطوة التالية، ولهذا يقولون: «إذا لم تكن تعرف الى أين أنت ذاهب، سوف لن تصل الى أي مكان».

وقد عبّر مصطفى محمود عن ذلك بوضوح حين قال: «انتصاراتي على نفسي هي أهم انتصارات في حياتي، وأحلم بأن أكون (أنا) لا أكثر وأن أستطيع أن أخرج للدنيا أفضل ما في نفسي وأن أظل أعطي حتى أموت مقرباً من الله راضياً عني وربنا يخرجنا منها على خير، وكانت حياتي الأدبية في خلال ثلاثين عاماً وعبّر (56 كتاب) هجرة مستمرة نحو إدراك الحياة والبحث عن الحقيقة.. وكان كُلاً كتاب محطة على طريق هذا السفر الطويل. في أواخر الستينيات دخلت عالم الأديان في سيرة طويلة تبدأ بالفيديوات

الهندية والبوذية والزرادشتية والثيوصوفية واليوجا⁽¹⁾ ثم اليهودية والمسيحية والإسلام.. انتهيت إلى شاطئ القرآن الكريم.. وفي بحر الصوفية الإسلامية أجد جميع ينباع وجميع الجداول وكلّ الأنهار.. وأجد الإجابات لكلّ ما كنت أبحث عنه من مشاكل أزلية. بعد ذلك وفي أواخر السبعينيات تأتي

1- * الفيذا: هي النصوص المقدسة من الترانيم والتراتيل لدى الآريين لتكريم الآلهة. وقد ضمنت في كتيبات يدوية تعبر عن التضحية للعبادة والتأمل الفلسفي وتعتبر الفيذا لب العقيدة الهندوسية وتعطي معلومات عن الآريين وعن التعاليم والطقوس الفيديوية والتراث الفلسفي الهندي. وما زالت آلهة الشعب الفيدي موجودة في العقيدة الهندوسية حتى اليوم.

* البوذية (نسبة إلى غاوتاما بودا): هي ديانة غير ألوهية وهي من الديانات الرئيسية في العالم، تم تأسيسها عن طريق التعاليم التي تركها بوذا (المتيقظ). نشأت البوذية في شالي الهند وتدرجياً انتشرت في أنحاء آسيا، التبت فسريلانكا، ثم إلى الصين، منغوليا، كوريا، فاليابان.

الديانة الزرادشتية: نسبة لمؤسسها زرادشت ديانة إيرانية قديمة وتعتبر من أقدم الديانات في العالم والتي تأسست قبل 3500 سنة تقريبا في إيران.

* الثيوصوفية: وهي ببساطة حكمة الله تتضمن علوم، وفلسفة ودين، كانت قد نشرت في البداية عن طريق السيدة «هيلينا بتروفنا بلافاتسكي»: في نهاية القرن التاسع عشر وعن طريق آخرين من بعد موتها. الكلمة (ثيوصوفية) جاءت من اليونانية من (ثيوس) وتعني الله و(سوفوس) وتعني حكمة وتترجم ك: حكمة الهية والكلمة كانت تستعمل في الماضي من قبل الفراعنة في مصر القديمة. حتى اسست السيدة بلافاتسكي الجمعية الثيوصوفية في 1875.

* اليوجا: هي مجموعة من الطقوس الروحية القديمة أصلها الهند، وتعرف بأنها «طريقة فنية أو ضوابط محددة من التصوف والزهد والتأمل، مما يرمي إلى خبرة روحية وفهم عميق جدا أو بصيرة في الخبرات».

المرحلة الصوفية وفيها أقدم الثلاثية الصوفي: السرّ الأعظم.. ورأيت الله.. الوجود والعدم، كما أقدم أسرار القرآن.. والقرآن كائن حيّ ومجموعة قصص مثل: نقطة الغليان وأناشيد الإثم والبراءة، ومسرحيات مثل: الشيطان يسكن في بيتنا ومسرحية الطوفان، ودراسات في الحب مثل: عصر القروود، رواية سياسية هي.. المسيح الدجال. ورغم كلّ شيء فأنا ما زلت أراني في بداية الطريق وكل ما كتبت هو في نظري ليس أكثر من مُسوّدة ناقصة وبين ما أنجزت وبين ما أحلم به بون شاسع وما زلت أتلمذ كلّ يوم على يد كلّ إنسان⁽¹⁾.



إذا كان مما يجعل الإنسان يقفز ليحقق ذاته وبصمته في الحياة هو أن يعرف نفسه وما وهبه الله تعالى من طاقات وإمكانات وقدرات لا محدودة فيها، فإن تلك المعرفة بالنفس ليست كافية ان لم تكن مصحوبة بعامل على قدر كبير من الأهمية وهو «الثقة بالنفس».

يقول أحدهم: «كلّ شخصٍ ناجح التقيته قال لي حياتي بدأت عندما بدأت أثق بنفسِي».

ويقول آخر: «التاريخ ما هو إلا مجموعة قصص عن أناس كانوا واثقين من أنفسهم».

خذ على سبيل المثال: سُئل الإمام علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه)، بعد يوم الخندق، وكان قد نازل عمرو بن ودّ أكبر محاربي المشركين بسالة

1- محمد الجارحي - جريدة الدستور - انترنت.

وجرأة، وله في سجل الوقائع خوارق نادرة: بَم انتصرت على عمرو يوم الخندق؟ فقال: «كانت نفسي حدثني أني سأغلبه وأنه سيتقهقر أمامي، فلم أبال به في شيء».

نفسه حدثته.. وكفى..

أي ثقة هذه التي يذكرها الإمام..

إنها نموذج مثالي لعملية صناعة الثقة بالنفس..

إذا حدثتك نفسك بقدرتها على فعل شيء فلا تهوّن من شأنها مهما كان ولا تتهاون أبدا.. أبدا من فورك ولسوف تجد قوتها وطاقاتها حاضرة بين يديك.

يقول أحدهم: «الواثقون في أنفسهم يفكرون بهذه الطريقة: إنّي أستطيع، سوف أحقق، إنّي قادر. بينما الفاشلون يفكرون بهذه الطريقة: كان لازم أن يكون الأمر كذلك، ليت الأمر كان كذلك، إنّي لا أستطيع أن أكون كذلك».

تحيل نفسك أنك ستنجح، فهذا كفيل وحده بتذليل الصّعاب.

ولكن ما الذي يفعله من كان يشعر بأنّه لا يثق بنفسه أو أنّ ثقته بنفسه ضعيفه..؟

إنّها حقا لأزمة نفسية اجتماعية مستشرية في مجتمعاتنا بشكل يكاد يكون ظاهرة اجتماعية، لا ينجو منها إلّا من رحم الله، وسبب ذلك يرجع الى طبيعة هذه المجتمعات التي تتصف بالطابع الديني عموما، والطابع الديني يفرض سلطة وصاية بأنواع شتى سواء على الإيمان او الفكر او السلوك او المعتقد أو الرأي أو أي مستوى قرار يمكن أن يتّخذها الإنسان في حياته..

بمعنى أن الفرد في هذه المجتمعات مقيد بموانع حديدية قطعياً تتجاوز حدود الممنوع إلى المحرّم، والفرق بينهما واضح إذ الممنوع جزاؤه دنيوي وأما المحرّم فجزاؤه دنيوي وآخروي.. هذا فضلاً عن حدود الأعراف والتقاليد والعادات التي تشكل منظومة قيمية كاملة من الممنوعات ضمن عناوين: العيب، الخزي، العار.. الخ. ثم تأتي القوانين الوضعيّة وما تضع عليه من خطوط حمراء تجاه جوانب أساسية في حياة الإنسان كالسياسة والمساواة والحرية الفردية.. الخ.

إن الفرد حين ينشأ في مجتمعاتنا الشرق أوسطية فإنه ينمو وهو يروح تحت وطأة سيل جارف من النقد واللوم والتحذير والموانع وكل ذلك يجعله يفكر ألف مرة ومرة قبل أن يحاول أن يتخذ خطوة جريئة في حياته، وما معنى ذلك؟ معناه أزمة ثقة بالنفس، أي أزمة اجتماعية، أن لم نقل ثلثي المجتمع مصاب بها، فما لا يقل عن نصفه. بدرجة أو بأخرى.

أوليس أمراً محزناً أن نمنح ثقتنا لمن يحيطون بنا، وفي أحيان كثيرة لأناس لا يستحقون ثقتنا، ثم نحن لا نستطيع أن نثق بأقرب شيء لنا وهي أنفسنا.. من علامات ضعف الثقة بالنفس:

أولاً: تهويل الأمور والمواقف بحيث تشعر بأن من حولك يركزون على ضعفك ويرقبون كل حركة غير طبيعية تقوم بها.

ثانياً: الخوف والقلق من أن يصدر منك تصرف مخالف للعادة حتى لا يواجهك الآخرون باللوم أو الإحتقار.

ثالثاً: إحساسك بأنك إنسان ضعيف ولا يمكن أن تقدّم شيئاً أمام

الآخرين بل تشعر بأنّ ذاتك لا شيء يميزها وغالبا من يعاني من هذا التفكير الهدّام يرى نفسه إنسان مهان ويسرف في هذا التفكير حتى تستحكم هذه الفكرة في مخيلته وتصبح حقيقة للأسف.

إنّ النقطة الأخيرة هي أخطر مشكلة، لأنّها تدمرك وتدمر كلّ طاقة إبداع لديك فعليك أو لا أن تتوقّف عن احتقار نفسك وتكرار بعض الألفاظ التي تدمر شخصيتك مثل «أنا فاشل» أو «أنا ضعيف» أو «أنا حظي قليل» أو «أنا لست ذكياً».. الخ فهذه العبارات تشكل خطراً جسيماً على النفس وتخطمها من حيث لا يشعر الشخص بها..

كان «ستيف بلاس» هدافا أساسيا في نادي بايسبول في سنة 1972، وواحداً من أفضل اللاعبين، وبعد سنة خرج من اللعبة، وما حصل أنّ ستيف فقد ثقته بنفسه وكما قال: «عندما فقدت الثقة فقدتها للابد»، ويشرح كيف فقدتها حيث بدأ بالتفكير بكلّ الأمور السيئة التي يمكن أن تحصل، وفجأة بدأت تحصل، ولم يعد يسيطر على تداعيات نفسه وانحدر من سيء الى أسوء، وقبل أن يستعيد ثقته كان قد أصبح على هامش اللعبة⁽¹⁾.

على من يشعر بضعف الثقة بالنفس أن يدرك ان امامه خطوتين لكي يستطيع أن يكسر القيود وأن يتحرر في عوالم أحلامه وأهدافه..
الخطوة الأولى: أن يثق بنفسه.

والخطوة الثانية: أن يضاعف الثقة بنفسه لكي يتمكن من القفز.

1- د. ديفيد نيفين - مائة سرّ من أسرار السعادة، ماذا تعلم العلماء عنها وكيف تستطيع انت أن تستفيد منها - تعريب ابتسام محمد الخضراء - مكتبة العبيكان - ط1 - 2001 - ص 51.

فأما بناء الثقة بالنفس فيمكن للإرشادات الآتية ان تساعد في تكوينه :
اولا : اعتبر كل نقد أو لوم مجرد نصيحة تقويمية ولا تعتبرها ذمًا لك
أو قدحا في شخصيتك. أي لا تجعل نفسك وعاء يقع فيه كل ما يقال عنك
وعن ما تقوم به. وحول النقد للفعل لا للفاعل، أي قل لقد نقدوا تصرفي
ولم ينقدوني أنا، وهناك فرق بين الاثنين.

ثانيا: لا تكن مرهف الحس في مجال النقد فتهول الأمور وتعظم من
شأنها، وقد رأيت بعضهم كلمة تبنينهم وكلمة تهدمهم..

ثالثا: لا تعطي نفسك المجال للمقارنة بين ذاتك وغيرك أبدا، واحذر
من هذه النقطة، لأنها تدمر كل ما بنيتة... وتذكر أن لكل شخص منّا ما
يميّزه عن الآخر.. يقول «أوسكار وايلد»⁽¹⁾: «كن على طبيعتك، فليس
بمقدورك أن تتقمّص شخصية غيرك».

رابعا: التركيز على قدراتك ومهاراتك الذاتية وهواياتك وإبرازها أمام
الآخرين والافتخار بذاتك، فهذا يعزز ثقتك بنفسك.

خامسا: تذكر دائما لحظات الثقة والقوة التي مررت بها في حياتك،
وحاول استحضارها دائما، وجرب أن تعممها على مواقف أخرى.

هذا بالنسبة لاعادة بناء الثقة بالنفس وأما مضاعفة الثقة بالنفس، فيمكن
الوصول لها من خلال النظر في الإرشادات الآتية:

اولاً: اتّخاذ القدوة المثالية الكاملة التي عانت ما عانت من الأمرين في

1- مؤلف مسرحي وروائي وشاعر أنجلو-إيرلندي.

ظل مصاعب الحياة، ومع ذلك لم تضعف ثقتها بنفسها بل تضاعفت مع المصاعب والشدائد، ولعل سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام المثال المثالي في هذا الشأن حيث اتهم - حاشاه - بالكذب والجنون والشعر والسحر وغير ذلك، فما زاده ذلك إلا تمسكاً وتماسكاً، وكذلك الشأن مع أصحابه الكرام رضوان الله تعالى عليهم، فما زادهم ذلك إلا إيماناً، يقول تعالى: ﴿وَكَايْنٌ مِنْ نَبِيِّ قَاتَل مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾⁽¹⁾. فخذ من هذه النماذج وأمثالها كثير في الحياة الإنسانية، مثالا لقوم تعرضوا للنقد واللوم، فكان ذلك دافعاً وحافزاً لهم لزيادة ثقتهم بأنفسهم ومضاعفتها، وخذ على سبيل المثال مؤسس شبكة CNN «تد تيرنر» الذي كان يقول: «أحب عندما يقول لي الناس لا يمكنك تحقيق ذلك، لأنه طوال حياتي والناس يقولون لي لن تنجح أبداً». أي أنه يحاول القفز على آرائهم المثبطة ليثبت لهم أنه قد نجح وبذلك حول وسيلة الهدم وهي النقد الى مادة بناء للثقة بالنفس.

ثانياً: يرى القافزون أنك إذا كنت تعتقد بأنك قادر فأنت محق، وإذا كنت تعتقد أنك عاجز فأنت محق أيضاً. ومعنى ذلك أنك إذا اعتقدت أنك قادر على مضاعفة ثقتك بنفسك فأنت قادر على ذلك لا محالة.

ولقد قالوا وما أجمل ما قالوا :

❖ لم أستطع انتظار النجاح، لذا قررت أن أذهب اليه.

1- آل عمران : 146.

- ❖ لا ينجح الناس إلا في الأشياء التي يستمتعون بالقيام بها.
- ❖ لكي تنجح عليك أولاً أن تحب العمل الذي تقوم به.
- ❖ الشخص المحظوظ هو الشخص الذي صمّم على تحقيق هدفه ولم تزعه الانتقادات ولا الاتهامات.
- ❖ لتحقيق النجاح، اعمل كما لو كان يستحيل عليك أن تفشل.
- ❖ لا تحتقر الخطوات الأولى على سلم النجاح.
- على أن بناء الثقة بالنفس أو حتى مضاعفتها لا يعني أبداً ان تتجاهل الآخرين ولا تلقي بالانصائهم..
- شخص ثري جداً سعى كي يصبح حاكم ولاية جنوبية في أمريكا، ولم يكن يتلقّى تعليقات من أحد، وفي النهاية أصبح سيّد نفسه وحقق نجاحاً باهراً، وهذا زاده اعتداداً بنفسه فبات يظن أنه يعرف كل شيء. هذا الأمر جعله يظهر في عيون الناس وكأنه مغرور، ففقد محبة المقربين منه والبعيد عن، وفي أثناء حوار تلفزيوني تم بثه على نطاق الولاية لم يعرف الاجابة عن كيفية اجازة الولاية للميزانية، فسقطت صورته الممجّلة كليا من عيون الناس، فلم يتأهل، ليصبح حاكماً ولا سيناتوراً ولا أياً من الشخصيات التي سعى ليكونها⁽¹⁾.

إذن ينبغي على المرء أن يفرّق بين ما يمتلكه من نقاط قوة ومواهب باطنه

1- آل عمران : ص 56.

عندها يمكن أن يفيد بها من حوله، وبين نقاط قوة الآخرين التي يمكن له أن يستفيد منها، فكلنا عالم ومتعلم، ومن تمسك بأحدهما انحرف عن طريق النجاح.

إن الثقة بالنفس هي بيضة القبان التي بها يترجح مصير الفرد فإما قافز وإما غير ذلك، ولا فرق في غير ذلك بين واقف أو متأرجح أو هابط.

فعلا لا توجد حيطان

«أنت قادر على فعلها اذا صدقت أنك قادر على ذلك».

«هيلين كيلر» أعجوبة المعاقين في كلّ العصور كما يقال، ولدت في مدينة «تسكمبيا» في ولاية «ألاباما» بالولايات المتحدة الأمريكية عام 1880م، وقبل أن تبلغ الثانية من عمرها أصيبت بمرض أفقدها السمع والبصر، وبالتالي عجزت عن الكلام لانعدام السمع.

سعت والدتها إلى تعليمها استعمال يديها في عمل إشارات تفصح بها جزئياً عما تود قوله. ووضعتها والدها في معهد للعميان، وطلبا من رئيس القسم أن يرشدها إلى معلمة لها، فأرشدها إلى «آن سوليفان» التي كانت قد أصيبت أول عمرها بمرض أفقدها بصرها، ودخلت معهد العميان في الرابعة عشرة من عمرها، وبعد حين عاد إليها بصرها جزئياً. وقد التقت بعد انتهاء دراستها بـ«هيلين كيلر» لتبدأ معها رحلة طويلة مثيرة هي أشبه بالأعجوبة وتمثل في الحقيقة أروع إنجاز تم في حقل تأهيل المعوقين.

رحبت أسرة كيلر بالمعلمة سوليفان ترحيباً حاراً، وكانت هيلين آنذاك في حوالي السادسة من عمرها. بدأت سوليفان تعلمها الحروف الأبجدية

بكتابتها على كَفِّها بأصابعها واستعملت كذلك قطعاً من الكرتون عليها أحرف نافرة، كانت هيلين تلمسها بيديها وتدرجياً بدأت تؤلف الكلمات والجمل بنفسها. وبعد مرور عام تعلمت هيلين تسعائة كلمة، واستطاعت كذلك دراسة الجغرافيا بواسطة خرائط صنعت على أرض الحديدية كما درست علم النبات.

وفي سن العاشرة تعلمت هيلين قراءة الأبجدية الخاصة بالمكفوفين وأصبح بإمكانها الاتصال بالآخرين عن طريقها.

ثم في مرحلة ثانية أخذت سوليفان تلميذتها إلى معلمة قديرة تدعى «سارة فولر» تعمل رئيسة لمعهد «هوارس مان» للصم في بوسطن وبدأت المعلمة الجديدة مهمة تعليمها الكلام، بوضعها يديها على فمها أثناء حديثها لتحس بدقة طريقة تأليف الكلمات باللسان والشفيتين. وانقضت فترة طويلة قبل أن يصبح باستطاعة أحد أن يفهم الأصوات التي كانت هيلين تصدرها.

لم يكن الصوت مفهوماً للجميع في البداية، فبدأت هيلين صراعها من أجل تحسين النطق واللفظ، وأخذت تجهد نفسها بإعادة الكلمات والجمل طوال ساعات مستخدمة أصابعها لالتقاط اهتزازات حنجرة المدرسة وحرارة لسانها وشفيتها تعابير وجهها أثناء الحديث.

وتحسّن لفظها وازداد وضوحاً عاماً بعد عام فيما يعد من أعظم الإنجازات الفردية في تاريخ تربية وتأهيل المعوقين. ولقد أتقنت هيلين الكتابة وكان خطها جميلاً مرتباً.

ثم التحقت هيلين بمعهد كمبردج للفتيات، وكانت الأنسة سوليفان ترافقها وتجلس بقربها في الصف، لتتنقل لها المحاضرات التي كانت تلقى، وتمكنت من أن تتخرج من الجامعة عام 1904م حاصلة على بكالوريوس علوم في سن الرابعة والعشرين.

ذاعت شهرة هيلين كيلر فراحت تنهال عليها الطلبات لإلقاء المحاضرات وكتابة المقالات في الصحف والمجلات.

بعد تخرجها من الجامعة عازمت هيلين على تكريس كل جهودها للعمل من أجل المكفوفين، وشاركت في التعليم وكتابة الكتب ومحاولة مساعدة هؤلاء المعاقين قدر الإمكان.

وفي أوقات فراغها كانت هيلين تخطِّط وتطرِّز وتقرأ كثيراً، وأمكنها أن تتعلم السباحة والغوص وقيادة المركبة ذات الحصانين.

ثم دخلت في كلية «رد كليف» لدراسة العلوم العليا فدرست النحو وآداب اللغة الانجليزية، كما درست اللغة الألمانية والفرنسية واللاتينية واليونانية.

ثم قفزت قفزة هائلة بحصولها على شهادة الدكتوراه في العلوم والدكتوراه في الفلسفة.

في الثلاثينات من القرن العشرين قامت هيلين بجولات متكررة في مختلف أرجاء العالم في رحلة دعائية لصالح المعوقين للحدِيث عنهم وجمع الأموال اللازمة لمساعدتهم، كما عملت على إنشاء كلية لتعليم المعوقين

وتأهيلهم، وراحت الدرجات الفخرية والأوسمة تندفق عليها من مختلف البلدان.

عندما سئلت عن سبب غرامها بالكتب أجابت: لأنّها تحدّثني عن الكثير من الحقائق الممتعة، عن الأشياء التي لا أستطيع مشاهدتها، كما أن الكتب بخلاف الناس لا تتعب ولا تتضايق فتظلّ تحدّثني المرة تلو الأخرى عما أودّ معرفته.

ثم ما هي إلاّ فترة بسيطة حتى تسمع عن فتاة صماء استطاعت تعلم الكلام فأصرت على المحاولة والخضوع للتجربة، وبذلت العديد من المحاولات المضيئة، لتعلم المحادثة، وهي الفتاة الصماء التي لم تسمع الكلام فكانت تضع يديها على حنجرة المعلمة وشفّتها حتى تتبين مخارج الحروف.

كانت هيلين تؤكّد على أن السعادة تنبع من داخل الإنسان بغض النظر عن ظروفه، فتقول: «معظم الناس يقيسون سعادتهم بمقاييس المتعة الجسدية والممتلكات المادية. إذا كانت السعادة بهذه المقاييس فإن الأشخاص الذين حرموا من نعمة البصر أو السمع لا يملكون إلا أن ينكمشوا مكتوفي الأيدي في إحدى الزوايا ويجهشوا بالبكاء. لكن كنت سعيدة على الرغم من كل ما حرمت منه، كانت سعادي من العمق بحيث أصبحت عقيدة، كانت متغلغلة في فكري بحيث أصبحت فلسفة حياة، باختصار إذا كنت متفائلة فإن شهادتي جديدة بأن تسمع حقاً».

ألّفت هيلين كتابين، وكانت وفاتها عام 1968م عن ثمانية وثمانين عاماً.

ومن أقوالها :

- إنَّ الذين يراقبونني من شرفة وجودهم المعافى يرثون لحالي ولكن مهما
بدا طريقي مظلماً في أعينهم فأني أحمل نوراً عجائبياً في قلبي فالإيمان ينير كلَّ
سبيل أسلكه.

- لا تظنَّ العاهات تمنعك من بلوغ الغايات، فكم من فاضل حاز المجد
وهو أعمى أو أصمّ أو أشلّ أو أعرج، فالمسألة مسألة هم لا أجسام.

- لقد استمتعت بمباهج الحياة ونعمت بجمالها.

- لا تحني رأسك لمشاكلك ولكن ابقها عالية وسترى حينها العالم مستقيماً
أمامك.



حقاً لله درٌّ من قال :

سوف تأتيك المعالي إن أتيت لا تقل : سوف، عسى، أين، وليت
لا بدّ للهمم المتتهبة من أن تنال مطلبها، ولا بدّ للعزائم المتوثّبة من أن
تنال مرغبتها.. ألا فليهنأ أرباب الهمم بوصول القمم..



كان «جون دومينيك بوبي» يعيش مع زوجته وابنه في ضاحية من
ضواحي باريس، كان صحفياً ناجحاً، معظم وقته يتوزّع بين بيته وبين
وظيفته المرهقة..

وفي أحد أيام شهر ديسمبر 1995م كان جون يقود سيارته فوق طريق
سريع مغطى بالثلوج... فجأة داهمته سكتة دماغية حادة بدون أي مقدمات

غير أنه نجح في إيقاف السيارة وأرسل ابنه لطلب المساعدة، ولكنه فقد الوعي وسقط.

لم يفق من غيبوبته إلا بعد ثلاثة أسابيع، وعندما أفاق وجد نفسه كائناً مختلفاً عما كان عليه.. إذ أن السكتة أصابته بأضرار وخيمة جداً.. فقد أصبح عاجزاً عن الكلام والحركة.. وشلّ جسده كاملاً.. ولم يكن يستطيع تحريك سوى جفن عينه الأيسر فقط.. ولحسن الحظ كان بقي عقله سليماً، وذاكرته صحيحة، وكانا قادرين على العمل بمتهى الكفاءة.. صمّم جون على العثور على طريقة يتواصل بها مع الغير..

وأمام هذا التصميم وأمام هذه الإرادة العظيمة.. قرّر تأليف كتاب كامل معتمداً على جفن عينه الأيسر وكان عنوان هذا الكتاب: (The Diving Suit And The Butterfly) وهو عبارة عن رحلة شعرية خيالية داخل عقل رجل حبست أفكاره داخل جسده المشلول.

كتب قائلاً: «عندما لا يكون لباس الغوص ضيقاً، يتحرّر العقل، ليحلق مثل الفراشة».

كان بوبي يلتقي أحد الكتاب لمدة ثلاث ساعات يومياً داخل غرفته بالمستشفى حيث كان يملئ نصّ الكتاب حرفاً حرفاً عن طريق تحريك الجفن بواسطة طريقة أبجدية صمّمت لهذا الغرض، وجاء الكتاب المؤلّف من 137 صفحة ومن نتاج: 200000 إغماضه للعين، لنعلم أنه متى وجدت الإرادة.. وجد الطريق دائماً.



ذكرت مجلة -إيلاف الإلكترونية- أن هناك حوالي (726) فناناً يرسمون لوحاتهم الجميلة بأفواههم وأرجلهم في العالم، وأنّ لوحاتهم الفنيّة بلغت آلاف الدولارات، وأغلب الرسومات والألوان التي فيها تشع بالتفاؤل والأمل وفيها درجة متقدمة من الاحترافية الفنيّة رغم أن الذين رسموها هم أناس أصيبوا بحالات مرضيّة شديدة في طفولتهم أدّت إلى جعلهم يفقدون المقدرة على استخدام أيديهم كغيرهم من الناس. الرسامون هؤلاء الذين يرسمون بأفواههم وأرجلهم والذين يتعاونون مع دور النشر العالميّة لنشر إبداعاتهم الفنيّة أثبتوا ليس فقط قوة الإرادة وإنّما موهبة غنية لديهم، الأمر الذي انعكس في تنظيم العديد من المعارض لهم وفي إصدار مئات الروزنامات واللوحات في جميع أنحاء العالم والعجيب أنّ بعضهم فقد يديه ورجليه معاً ولكنّه يرسم لوحاته الجميلة بضمه وبعضهم يعمل في حرفة الساعات فيصلح الساعة بقدميه بشكل يكاد يكون معجزة، وبعضهم يقود السيارة بقدميه أيضاً!!.



إنّك تستطيع أن تتحدّى الظروف الصّعبة التي تواجه مسيرة حياتك فهاهو «بيكاسو» كان يكره مادة الحساب ومع ذلك أصبح من أشهر الرسامين. «اينشتاين» كان أبواه يعتقدان أنّه مصاب بتخلف عقلي ومع ذلك أصبح عالماً كبيراً. «فرانكلين روزفلت» كان مصاباً بشلل الأطفال ويتحرّك فوق مقعد متحرك، ولم يقعه هذا المقعد عن قيادة بلاده للنصر

في الحرب العالمية الثانية وقد أعيد انتخابه أربع مرات لرئاسة الجمهورية وهو ما لم يحدث مع رئيس أمريكي غيره. «أديسون» طرد من المدرسة لأنه غبي!! كما قرّر معلموه فنشأ فقيراً برعاية أمه ولكنه اخترع الكهرباء الذي أضاء للعالم أجمع.

كل هؤلاء لم يلوموا ظروفهم بل قفزوا فوق الواقع المقيد لهم، وتجاوزوا كلّ الحيطان والعقبات التي حاولت صدهم، صنعوا حياتهم بأنفسهم، فإذا فشلت في حياتك فاصرخ في وجه الفشل قائلاً: سأنجح في المرة القادمة وتذكر أن مشوار الألف ميل يبدأ بخطوة.

انتبه..هناك سما، ايضا

«ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم».

لكي يتغير كل شيء في مسار حياة الانسان، فهل يكفي أن يكون حاملا، أو أن يكون مبادرا إلى المحاولة تلو المحاولة دون كلل أو ملل في سبيل الوصول إلى الهدف الذي يحلم به؟

لم لا، قديكون ذلك كافيا للبعض، كما حصل مع الياباني «تاكيو أوساهيرا» الذي ذهب في بعثة حكومية للدراسة في جامعة هامبورغ الألمانية، لدراسة أصول الميكانيكا العلمية. لم يكتف «تاكيو» بالدراسة النظرية بل كان يطمح لكشف أسرار التصنيع الأوربي كله، وقد كان الاساتذة يحتاطون من هذا الأمر، فلا يأخذون الطلبة الأجانب إلى المعامل أو مراكز التدريب العملي، بل يغرقونهم بالكتب والنظريات، والتي التهمها «تاكيو» التهاما، ولكنه كان يدرك أن ذلك ليس كافيا أبدا. لذا قرّر أن يشقّ طريقه بنفسه، فاشترى بمرتبته الشهري محركا إيطاليا بقوة حصانين، وأخذه كما إلى حجرته، وضعه على المنضدة، وجعل ينظر اليه، كأنه ينظر إلى تاج من الجواهر، كما يصف هو، ثم حدّث نفسه قائلا: «هذا هو سرّ قوة أوربا، لو استطعت أن أصنع

محرّكاً كهذا، لغيرت اتجاه تاريخ اليابان» ثم بدأ العمل الجاد، كانت خطوته تتلخّص في محاولة تفكيك المحرك وإعادة تركيبه وتشغيله، فأخذ ورقاً كثيراً، وبدأ برسم منظر المحرّك، ثم أخذ يفكّك ويرسم الأجزاء والقطع، كلّما فكّك قطعة رسمها بغاية الدقة، وأعطاهها رقماً، وشيئاً فشيئاً، فكّكه كلّهُ، ثم أعاد تركيبه وشغّله فاشتغل. يقول «تاكيو»: «كاد قلبي يقف من الفرح، استغرقت العملية ثلاثة أيام، كنت آكل فياليوم وجبة واحدة، ولا أصيب من النوم إلا ما يمكنني من مواصلة العمل» ولما سمع رئيس البعثة الياباني قرّر اختباره، أعطاه محرّك متعطّل وطلب منه تفكيكه واكتشاف العطل وتصليحه. بعد عشرة ايام كان «تاكيو» قد اكتشف أنّ هناك ثلاث قطع في المحرّك متآكلة، لم يستلمها، بقطع جاهزة، بل صنع القطع المعطوبة بيده، يقول: «صنعتها بالمطرقة والمبرد» تشجع رئيس البعثة وقال له: «إذا أردت فعلاً أن تحقّق الإنجاز فعليك أن تصنع القطع كلّها بنفسك، ثم تركيبها لتكوّن المحرّك». ولكي يفعل ذلك كان عليه أن يلتحق بمصانع صهر الحديد، وصهر النحاس، والإلمنيوم. يقول «تاكيو»: «بدلاً من التفرّغ لرسالة الدكتوراه، كما أراد أساتذتي الألمان. تحوّلت الى عامل ألبس بذلة زرقاء، وأقف صاغراً الى جانب عامل صهر المعادن، كنت أطيع أوامره كأنّه سيّد عظيم، حتّى كنت أخدمه وقت الأكل، مع أنني من أسرة ساموراي، ولكنني كنت أخدم اليابان، وفي سبيل اليابان يهون كل شيء». قضى «تاكيو» في التدريب والدراسة العملية هذه ثماني سنوات، كان خلالها يعمل ما بين عشرة وخمس عشر ساعة في اليوم. وبعد انتهاء العمل كان يأخذ نوبة حراسة، وخلال الحراسة كان يراجع قواعد صناعة الصناعة.

وصل خبر هذا المثابر المجد الى الميكادو «امبراطور اليابان»، فارسل له خمسة آلاف جنيه انجليزي ذهبا. ومن فوره بادر «تاكيدو» لشراء أدوات مصنع محركات كاملة، ولما أراد شحنها إلى اليابان، نفذت النقود، فانفق راتبه وكلّ مدخراته في سبيل ذلك. واخيرا عاد إلى اليابان، يقول «تايكو»: «عندما وصلنا إلى ناغزاعي، قيل لي: إنّ الميكادوا يريد أن يراني. قلت: لن استحق مقابلته إلاّ بعد أن أنشئ مصنع محركات كامل». ويكمل «تايكو» قصته فيقول: «استغرق ذلك تسع سنوات، وبعدها حملت مع مساعدي عشرة محرّكات صنعت في اليابان، قطعة قطعة، حملناها الى القصر، ووضعناها في قاعة خاصة، بنوها لنا قريبا منه، وأدرناها، ودخل الميكادو، وانحنينا نحياه، فابتسم وقال: هذه أعذب موسيقى سمعتها في حياتي، صوت محرّكات يابانية خالصة».

ثم يعقب «تايكو أوساهيرا» قائلا: «هكذا ملكنا الموديل وهو سرّ قوّة الغرب، نقلناه إلى اليابان، نقلنا قوة أوربا الى اليابان، ونقلنا اليابان الى الغرب، وبعد ذلك نمت عشر ساعات كاملة لأول مرّة في حياتي منذ خمس عشرة سنة»⁽¹⁾.

لقد كان هذا مجهودًا شخصيًا لتحقيق هدف حلم به «تايكو»، هدف تجاوز ذاته الشخصية إلى أمته التي ينتمي لها كلّها. وقد توفّق في ذلك وتفوّق بشكل مذهل.

1- محمد مسعود العجمي، كيف نجح هؤلاء، نماذج واقعية للتفوق البشري، تجارب عالمية، الكويت، ط1، 1997، ص39-42.

أقول قد تكون المبادرة، والمواظبة، ثم المثابرة، سبيلاً للوصول الى الأهداف التي يحلم بها البعض. ولكن وفي الوقت نفسه قد لا يكون ذلك كافياً لآخرين. ففي الحياة هناك تنوعات وتعقيدات لا يمكن قولبتها في قوالب محدّدة.

بعض القافرين كانت لهم طرق أخرى لتغيير معادلات حياتهم.. ومنهم ذلك الذي كان يعمل ببيع الكتب في إحدى المؤسّسات، وقد جاءت عليه فترة من الزمن أدار الحظ له ظهره تماماً، حيث لم تعد مبيعاته تكفي لتغطية نفقاته مع أنّه زاد جهده اضعافاً مضاعفة. وقد أدّى كل ذلك إلى انهيار ثقته بنفسه، فبعد أن كان يُعَدّ من خبراء المبيعات، أصبح يخشى مقابلة العملاء، يقول واصفاً حاله: «اجتاحني خوف داخلي وأصبحت أخشى مقابلة العملاء، فإذا حدث أن ذهبت إلى مكتب عميل، استبدّ بي الخوف الداخلي حتّى لأذرع المنطقة التي يسكن فيها العميل، جيئةً وذهاباً، أفكر واتدبّر قبل أن أقدم» الأمر الذي كان يؤدي إلى استنفاد معظم شجاعته، ويبدد طاقة الايجابية.. وقد دفع تدهور مبيعات المؤسسة الى قطع تعاملها معه إن لم يزد مبيعاته، وفي هذا الوقت راسلته زوجته التي ارتحل عنها من أجل العمل، متضرعة إليه كي يمدّها بالمال، لتسدّد حساب البقال، وتطعم نفسها وأطفالهم الثلاثة. وهكذا تراكمت الديون فلم يعد قادراً على دفع أجرة الفندق الذي يسكن فيه، بل لم يجد أجرة السفر، ليعود أدراجه إلى موطنه، ثم بأي وجه يعود؟

إنّها أيام سوداء لا تريد مفارقتة أبداً، ترى ما الذي يفعله أي شخص في مثل هذه الحالة؟ هل يفيد قولنا بالحلم والهدف والمحاولة تلو المحاولة.. إنّه

يحاول ولكن الوقت يضربه في صميمه بمقتل...! كيف يستطيع شخص مثل هذا أن يقفز من هذا البؤس الذي تراكم عليه حتى أنهكه حدّ النخاع؟!!

لندعه هو يخبرنا: «ذات يوم من تلك الأيام السوداء، عدت إلى غرفتي بالفندق محطّماً، كسير الفؤاد، مكتئباً، فلم أجد لدي ما أطعمه سوى زجاجة من اللبن الساخن. وأدركت في تلك الليلة لماذا يقدم بعض الناس على فتح نوافذ منازلهم ثم يقذفون بأنفسهم منها...؟! وكنت جديراً بأن أحذوا حذوهم في تلك الليلة لو أنني أوتيت بعض الشجاعة».

نأتي الآن إلى النقطة الحاسمة في تجربة هذه الرجل، حيث يقول: «ثم خطر لي أن اتجه إلى الله، وأبته شكواي. فرحت أصلي، وأضرع إليه سبحانه، أن ينير بصيرتي، ويسدّد خطاي في هذا الظلام الكثيف الذي يكتنفي من كل جانب، وان يوفقني في عملي عسى أن أجد من المال ما يمسك رمق زوجتي وأولادي».

تأمل، حين أغلقت في وجهه كلّ أبواب الأسباب، لجأ إلى خالق الأسباب، إلى الرحمن الرحيم، والأهم أنه لجأ بقلب منيب، لم يدع ربه بلسانه وقلبه عن ربه غافل، بل صلّى بجسمه وروحه، والتجأ إلى بارئه بكله، فما الذي حصل؟ يقول: «وما أن فرغت من صلاتي حتى حدثت المعجزة!» ترى ما هي هذه المعجزة، هل دقّ أحد عليه الباب ليخبره أن فاز باليانصيب؟ أم أن أحد العملاء اتصل به يريد كمية كبيرة من مبيعاته؟ أم غير ذلك ممّا يمكن أن نتخيله من أسباب تنقذه من هذا الوضع المزري؟ إن ذلك ممكن الحدوث ولكنّه لم يحدث ولا بشكل من الأشكال، فما الذي حصل أذاً؟ وما

هي تلك المعجزة التي حدثت؟ لنستمع لها من فمه، يقول: «وما أن فرغت من صلاتي حتى حدثت المعجزة.. فقد زال عني توتر أعصابي، وتلاشت مخاوفي، وانقضى قلقي، واستشعرت شجاعة وأملا وإيمانا.. وبالرغم من أني لم أحصل على المال، لأسدد أجرة الفندق، أو أسد رمقي، فقد احسست بالسعادة، وآويت إلى فراشي، فنمت نوما هادئا عميقا لأول مرة منذ فترة طويلة».

أهذه هي المعجزة كلّها!! قد يتساءل البعض. وانا أقول: نعم أنّها حقاً معجزة لمن يعي ما تعني، فما حصل له من اطمئنان في القلب وسلام في الروح ما هو إلا علامة حقيقية لأستجابته دعائه، لقد ألقى ما في نفسه إلى ربه، وبثه شكواه بصدق، متوكّلاً على حوله وقوته، فكان أن استجاب له ربه، فهدّئ روعه وأهمه السكينة والإيمان.. وكل ذلك إرهافات الفرج الاكيد.

يقول صاحبنا: «وفي صباح اليوم التالي، ألفت نفسي اندفاعاً إلى مكاتب العملاء. وذنوت من مكتب العميل الأوّل وطرقت بابه بيد ثابتة لا ترتجف. وإذ دلفت إلى المكتب قلت للعميل وأنا رافع الرأس، واضح النبرات، مشرق الوجه؛ ما ينبغي عليّ قوله، فما كان من العميل إلاّ أجابني مبتسماً ومرحبا بعرضي له، وقد عقدت في ذلك اليوم من الصفقات أكثر مما كنت أعقد في أسبوع كامل. وعدت أدراجي في المساء فخورا مزهوا كالبطل الظافر.. ومنذ ذلك اليوم واتخذت حياتي كلها وليس صفقتي فقط طريقها نحو القمة» وقد كتب يقول: «لقد خلقت في تلك الليلة الظلماء - التي مضى عليها الآن واحد وعشرون عاما - لقاءً جديداً في فندق صغير، لأنني وعيت

الرابطة التي تربطني بالله - سبحانه وتعالى- فما أسهل أن يهزم الرجل الذي يقاتل بمفرده، أما الرجل الذي يتخذ الله سنداً ونصيراً فلن يهزم أبداً».

حسناً، دعنا نتوقف قليلاً لنراجع بعض الأمور.. هذا الرجل ولسبب ما بدأت أحواله بالتداعي والانهيار حتى فقد الثقة بنفسه تماماً، ومعلوم أنّ فاقد الشيء لا يعطيه، فقد صار يذهب وباطنه موقن أن صفقته خاسرة، وكان كلّما حاول تجاوز هذه الأزمة النفسية كلّما ازداد انهياراً.. بتعبير «قانون الجذب» كان باطنه يجذب الأمور الأسوء له، لأنّه لا يتوقع إلاّ السيء، ولقد حاول أن يتوقّع الأحسن ولكنّه لم يفلح.. وكثيرون يقعون في مثل هذه المتاهة، تجده يحاول ويكابر ولكن شيئاً ما في باطنه انقلبت ثقته إلى النقيض، وبات يجذبه ويجذب له ما لا يريد، وأنا اصف مثل هذا الشخص بأنّه كمن يسير الى المغرب وهو يتمنى الوصول إلى المشرق، كل خطوة منه لا تزيده إلاّ بعداً عمّا يتمنّى..

حين يكون الخلل في باطن المرء، وحين يتيقن أنه غير قادر على معالجة ذلك الخلل، وغير قادر على توجيه إرادته الباطنه في الجهة التي يريد بها بالفعل. فوقتها عليه أن يعرف أنّه لن يقفز مما هو فيه إلاّ بقوة من خارج ذاته، قوة خالقه الرحمن الرحيم لتأتيه فتصحح باطنه، ما يمهد لتصحيح مساره في الحياة.

محمود تيمور الاديب المصري المعروف، حصل عنده مثل هذا الخلل بعد أصابته بمرض أقعده شهوراً في الفراش، فبعد وفاة أخيه الذي كان بمثابة المثل الأعلى والناصح الامين، وكذلك وفاة ابنه في العقد الثاني من عمره، هذه الأحزان المتلاحقة شدته إلى اليأس والشعور بالفراغ وفقدان المعنى فالحياة،

فما كان منه إلا أن التجأ إلى الصلاة والتضرع لربه لكي ينير له طريقه، فكان أن اهتدى للعمل الجاد الذي وجد فيه ذاته، وعادَّ له قيمة الحياة التي فقدها، يقول: «لقد غدا العمل عندي لوثاً من السعادة الكبرى فأنا اعتقده واعتدته من شعائر الحياة.. بعد الصلاة؛ فالصلاة عبادة لله وتأمل في صميم الوجود، وترفع عن توافه الدنيا وصغائر العيش. وما العمل إلا استغراق في أعماق الحقائق، وعزوف عن التفاهة والفراغ. بالصلاة تتخلص النفوس من شوائبها، فتتسامى في آفاق علوية صافية. وبالعمل تتجرد النفس للأهداف المرسومة وتتحرر من تلك النوازع والنزوات التي تجرّ إلى الشرور والآثام».

لقد اكتشف «محمود تيمور» ذلك التلازم التكاملي التداخلي بين الجانب الروحي والجانب العملي، وقيمة كلٍّ منها في إعطاء الحياة رونقها وجمالها فكتب يقول: «أنا في إقبالي على عملي الذي أتوجه إلى اتقانه أحس بأنني أعبد الله، وأؤدي ما كتبه عليّ، وكأنّ يد الله تدفع بي، وتبارك جهدي، وتحفني بالرعاية والرضوان»⁽¹⁾.



في فقرات سابقة تحدثنا عن الثقة بالنفس ودورها في تحفيز الإنسان على أن يقفز، ليصل إلى ما يلجم به ويحقق أهدافه، ولكن تلك الثقة أن انقلبت على صاحبها لسبب قاهر، فأنها حالته تصبح أردى من حالة من لم يمتلك تلك الثقة أصلاً.. وفي مثل هذا الوضع، وكذلك لمن لم يستطع التحقق بالثقة المطلوبة على كثرة المحاولات، فإنّ هناك اتجاه آخر، وهو الثقة بالخالق

1- محمد مسعود العجمي - كيف نجح هؤلاء - ص 44.

جلّ وعلا، وهذه الثقة تسمّى «الإيمان»، ومعنى الإيمان هنا هو التيقن من استجابة الخالق لنا حين ندعوه بكلّ جوراحنا سائلين إياه أن يمدّنا بذلك السلام الروحي وتلك القوة التي تنير بصيرتنا وتجعلنا مدركين تماما لكلّ ما نقوم به من أفعال أو خطوات في حياتنا.

دعني أوضح لك معنى «الثقة بالله تعالى» حين نريد أن نتوكّل عليها، في القصة الآتية:

كان هناك رجل فقير، اقضّ مضجعه وزوجه الفقر والفاقة، وكانت زوجه كثيرة التشكّي واللوم، وهو لا يجد له سبيلا للفرج، أينما ولى وجهه، أدارت له الأسباب ظهرها. وذات يوم، وبعد صراخ الزوجة وشدة لومها له، خرج من منزله منكسر القلب، شارداً الذهن، لا يلوي على شيء، سار في طرقات المدينة على غير هدى، حتى قادته خطواته من حيث لا يدري إلى باب مسجد، فجلس يستريح قليلاً. وأثناء جلوسه هناك، سمع أحد الصالحين يحدث قوماً تحلقوا حوله وهو يخبرهم عن فضل الصلوات على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، ويرغب الناس بذلك. ومن ضمن حديث ذلك الصالح سمعه يقول: «إنّ الصلوات تنفع الإنسان المؤمن في الدنيا والآخرة، فلو أنّ غنياً ذكر الصلوة على النبي عليه الصلاة والسلام بشكل دائم يجعل الله البركة في أمواله، وإذا ذكر الفقير الصلوات واستمر على ذلك فسوف ينزل الله له الرزق من السماء»

رفع ذلك الرجل رأسه إلى السماء وقد أعياه نصب الحياة، وناجى ربّه قائلاً: «أي ربّي وخالقي، جلست ببابك فرزقتني سماع ذلك، ساسعى

في مناكبها مصلياً على حبيبك، وأنا موقن بأنك سترزقني كما وعدت في كلامك»

أخذ يسير في الطريق وشفته تتحركان بذكر الصلاة على حضرة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، واستمر على هذا الأمر بشكل متواصل أياماً وأياماً. ولم يتغير شأنه، بل زادت عليه حدة لسان زوجته، وهو لم يزل يعلق ثقته برّبه مصلياً على حبيبته. وفي إحدى الامسيات وهو يسير في طريق مقفر، وقرب خربة اصطدمت قدمه بحافة صخرة حادة، صعقه ألم تلك الضربة التي جرحت إبهام قدمه، فجلس في الظلام يبحث عن شيء يوقف به نزيف الدم، وخلال ذلك رفع رأسه الى السماء والآلام تعتصر قلبه وقال: «أي ربّي وخالقي، أنا موقن أنك رازقي ببركة الصلوات على حبيبك وميسر أموري كلّها» كان يقول ذلك وهو يعصّ على شفته من الألم، ثم سحب خرقة بالية كانت تحت تلك الصخرة التي جرحته، وحاول إخراجها ليضمّد جرحه، رفع الصخرة، فإذا به يجد تحتها كيساً مملوءاً بالليرات الذهبية والجواهر، قال في نفسه: «أنا موعود بالرزق من السماء، وأنه سيأتيني لا محالة كما قال الصالح في حديثه، أنا لا أريد رزق الأرض».

هذا هو بالتحديد مفهوم الثقة بالله، والإيمان الحقّ الذي نعنيه، أنّه إيمان لا تزحزحه المغريات أنى كانت..

وضع الرجل الحجر على الكيس، ورجع إلى بيته خالي اليدين، فلما استقرّ في بيته قصّ ما رآه على زوجته بالتفصيل، فاخذت الزوجة تولول وتصرخ عليه وتطلب منه أن يدهمها على المكان، إذ لا يعقل أن يترك مثل هذا المال وهم بأمسّ الحاجة له.

كان لهذا الرجل جار يهودي، وفي تلك الأثناء كان على السطح وسمع من الرجل الذي قال لزوجته، نزل من السطح وتوجه مسرعاً نحو الخربة، رفع الصخرة وأخذ الصرّة ورجع إلى بيته، فتح الصرّة أمام زوجته، وجدها مملوءة بالعقارب والأفاعي .

قال لزوجته: إنّ جارنا المسلم عدوّ لدود لنا، لما عرف بوجودي على سطح داره، تكلم بهذا الكلام أمامي، لكي أسمع منه ذلك ثم أذهب إلى الكيس وآتي به إلى البيت لكي تهجم علينا العقارب والأفاعي وتقتلنا، لهذا سوف ألقى الذي في الكيس على رأسه من فوق السطح، ليموت كما أراد لنا ذلك، فجاء إلى سطح الدار، فوجده جالساً مع زوجته يتجادلان بصوت مرتفع، وسمع المرأة تقول لزوجها: يا هذا هل من الصحيح أن تعثر على الصرّة مملوءة بالذهب والجواهر فتتركها في مكانها، ونحن لا نملك طعاماً نأكله؟ والزوج يقول لها: إني لأرجو من الله عزّ وجلّ أن ينزل عليّ الرزق من السماء.

فتح اليهودي الصرة وألقى ما فيها على رأس الرجل وزوجته، سمع الرجل صوتاً فوق رأسه، رفع رأسه وإذا به يرى قطعاً ذهبية ومجوهرات تتساقط عليه، قال لزوجته: انظري إلى رزق الله عزّ وجلّ ألم أقل لك أنّي موعود بالرزق من السماء، وأخذ يكرّر الصلاة على سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام⁽¹⁾.

بعض القصص مثل الأمثال، تضرب ولا يقاس عليها، والغاية منها هو

1- الشيخ علي إبراهيمي - آثار الصلوات - ص 63 - 66 .

العبرة ليس ألاً، وما نريد الوصول له هنا، أنه وعلى الرغم من أنّ أسباب القفز قد تكون منوطة باختيارات الإنسان وثقته بنفسه، فإنّ هناك مسلكا آخر لآخرين، وهو الثقة برّهم. ومن خلاله يمكن ان يقفزا إلى ما يريدون.

إنه وراءك الباب الآخر.. افتحه..

« السعادة أن نعرف ما نريد.. ثم نريده
بالحاح».

(1)

القفز إلى السعادة يختلف من شخص إلى آخر، ليس هناك وصفة جاهزة للجميع، وكما يقول «ارسطو»: «إذا بحث عدّة أشخاص عن السعادة، فسوف يجد كلّ منهم سعادة مختلفة عن سعادة الآخرين».

هناك تلميحات فقط، قد تساعد على تنبيه النفس عمّا يفوتها مع تعاقب الأيام.. لذا وفي مقاطع مختصرة ساستعرض بعض الإشارات التي نَبّه لها قافزون سعادة ، فلعلّ واحدة منها أو أكثر تكون بمثابة الحافز الحقيقي للانتقال بك

إلى عالم السعادة.. وما ذلك ببعيد لمن يريد.



السعادة شعور ينتاب الإنسان، والسؤال الذي اختلف في الإجابة عليه

1- فيلسوف سويسري، كان أهم كاتب في عصر العقل. ساعدت فلسفة روسو في تشكيل الأحداث السياسية، التي أدت إلى قيام الثورة الفرنسية. حيث أثرت أعماله في التعليم والأدب والسياسة.

هو: كيف يصل الإنسان إلى ذلك الشعور؟ وكيف يستمرّ في الاحساس به؟
قد يرى البعض أنّ هذا الشعور مقترن بالثراء، فالأثرياء يأكلون ما يشتهون، ويلبسون ما يرغبون، ويمتلكون ما يشاؤون.. ولكن السؤال هنا: أليس للثراء ثمن؟ هل الثراء آت من الفراغ أم أنّه مترتب على أمر آخر؟ فإذا أردنا أن لا نعمم، فيمكننا القول أنّ الغالبية العظمى من الأثرياء، يقضون الجللّ الأعظم من حياتهم في مخافة الخسارة، فامتلاك الثروة ليس بالأمر الهين، والمحافظة عليها أصعب من جمعها، فهم لا يكادون يفرغون لأنفسهم إلا قليلا، وبالتالي فما قدر السعادة التي يشعرون بها نسبة لمخاوفهم من الأخطار التي تحيق بثرواتهم؟.

أذا، قد تعطي الثروة شيئا قليلا من السعادة، لكنّها قطعاً لن تعطي الانسان السعادة الدائمة التي يريجوها، وقل مثل ذلك على من يظنون بأن السعادة في الجاه والمجد والزعامة.. أو في الجمال الفاتن، او القوة الهرقلية أو ما إلى ذلك من أسباب أخرى. هكذا كان «سقراط»⁽¹⁾ ينظر إلى عجز هذه الأسباب عن توفير الشعور بالسعادة الدائمة التي يريجوها لنفسه ولن يجب. ولنستمع له وهو ينفي بمنطق بارع أن تكون السعادة قد تلخّصت في هذه الامور، فيقول: «كم مرّة كان الجمال فيها ضحيّة لغاؤ متهتك.. وكم من مرّة غرّت القوة أشخاصا فتهورّواي مشاريع لا طاقة لهم بها.. وكم من أشخاص بعث فيهم الثراء نوعا من الرخاوة.. طغت مضاره على ما كانوا

1- فيلسوف يوناني كلاسيكي. يعتبر أحد مؤسسي الفلسفة اليونانية والغربية.

يأملونه من نعيم.. وكم من أشخاص كان اسنهم ملئ السمع والبصر فكان مجدهم وثقة الناس فيهم عاملين في ضياعهم».

ولقد ردّ سقراط على «انتيفون» الذي انتقده بشدة بسبب سعادته في زهده بالدنيا، قائلاً: «الرفاهية والأبهة.. تلك هي السعادة في نظرك.. أما أنا.. فأني أعتقد أنه إذا كان من خصائص الاله أنه لا يحتاج إلى شيء.. فأنا مما يقرب من الإلهية ألا يحتاج الإنسان إلا إلى القليل.. وبما أنه لا أكمل من الله.. فان التقرب منه هو قرب من الكمال»⁽¹⁾.

يبدو ان «انتيفون» يرى بأن السعادة في أن تملك الدنيا وتتنعم بملذاتها، بينما يرى سقراط خلاف ذلك، هو يرى أن الأشياء ليست السبب الحقيقي للسعادة بل قد تكون على العكس من ذلك سبباً للشقاء. وقد تبنى مقارنة صوفية تذهب إلى أن السعادة الحقيقية تكمن في التقرب من صفات الله تعالى، لأن الله تعالى هو الأكمل، وما دام كماله تجلّى في عدم الحاجة إلى شيء، فأنا التقرب من تلك الصفة هو تقرب من الكمال وهو في الوقت نفسه تقرب من السعادة التي لا تشوبها شوائب الإقبال على الدنيا.

على أنا، وإن كنا نرى بأن هناك فرقا جوهرياً بين الخالق الغني عن العالمين بذاته وبين المخلوق الفقير بذاته، أي المحتاج لكل شيء، فأنا سقراط في محاولته التقرب من الكمال الإلهي بناءً على مبدأ «أن لا تملك شيئاً كي لا يملكك شيء» وبالتالي فلا يتعرض شعورك بالسعادة لما يكدره، فأنا هناك

1- مقال سقراط والسعادة، الدكتور عبد الحليم محمود، مجلة حياتك، العدد 15، القاهرة.

اتجاهاً صوفياً مقابل له، تمثل في رأي الشيخ محمد الكسنزان (قدس الله سرّه) الذي نظر لهذا الأمر من زاوية أخرى. ورأيه أن الله تعالى كامل مالك لكلّ شيء من غير حاجة لما يملك، وبذا فإنّ التقرب إليه لا يتنافى مع مفهوم «أنّ تملك كلّ شيء ولا يملكك شيء»⁽¹⁾. وما يعنيه ذلك - من جملة ما يعنيه - هو أنّ الشعور بالسعادة لن يتأثر إذا ما تمكّن الإنسان من عزل قلبه عن كل ما زيّن للناس من ﴿..حُبِّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ..﴾ الآية⁽²⁾. ومعنى أن لا يتأثر هو أن سعادته الروحية، لا تتحوّل الى تعاسة إذا ما خسر الأشياء التي يملكها، بل تبقى على حالها هي هي. والسؤال هنا: هل يستطيع الإنسان أن يكون بهذا الوصف؟. يجيب الصوفية على ذلك بالإيجاب، ويضربون على ذلك الأمثال، ومنها:

أنّه بينما كان الشيخ عبد القادر الجيلاني (قدس الله سرّه)⁽³⁾ جالساً في مجلسه يعظُ مُريديه خطرت على قلب أحد المريدين خاطرة، وراح يحدث نفسه قائلاً: كيف يمكن أن يكون لجام فرس الشيخ مصنوعاً من الذهب وهو الشيخ الزاهد سلطان العارفين العازف عن الدنيا وزخرفها؟! ولما

1- الشيخ محمد الكسنزان - موسوعة الكسنزان فيما اصطلح عليه أهل التصوف والعرفان - دار آية - بيروت - ط - 1 ج 10 ص 294.

2- آل عمران: 14.

3- الشيخ عبد القادر الكيلاني أو عبد القادر الجيلاني (470 هـ - 561 هـ)، الإمام الصوفي الذي يوصف بـ «تاج العارفين» و«محيي الدين» و«شيخ الشيوخ». إليه تنتسب الطريقة القادرية الصوفية.

انتهى الشيخ عبد القادر (قدّس الله سرّه) من وعظه حضر بين يديه فقير ذو خصاصة⁽¹⁾. فعرض على الشيخ حالته فأمر الشيخ خادمه بأن يعطيه لجام فرسه الذهبي ليسد الفقر به حاجته ثم التفت إلى ذلك المريد وقال له: لمثل هذه المواقف نجمع الأموال ونحتفظ بها يا ولدي⁽²⁾.

وروى ابن عطاء الله⁽³⁾ في كتاب لطائف المنن: قال بعض المشايخ كان رجل بالمغرب من الزّاهدين في الدنيا ومن أهل الجِد والاجتهاد وكان عيشه ممّا يصيده من البحر وكان الذي يصيده يتصدّق ببعضه ويتقوت ببعضه فأراد بعض أصحاب هذا الشيخ أن يسافر إلى بلد من بلاد المغرب فقال له هذا الشيخ: إذا دخلت إلى بلد كذا فاذهب إلى أخي فلان فأقرّه مني السلام واطلب الدّعاء منه لي فإنّه ولي من أولياء الله تعالى.

قال: فسافرت حتى قدمت تلك البلدة فسألت عن ذلك الرجل فدللتُ على دار لا تصلح إلا للملوك فتعجبت من ذلك وطلبتّه فقبل لي: هو عند السلطان فزداد تعجّبي، وبعد ساعة، وإذا هو آتٍ في أفخر ملبس ومركب، وكأنّها هو ملك في موكبه، قال: فازداد تعجّبي أكثر من الأول. قال: فهممت بالرجوع وعدم الاجتماع به، ثم قلت: لا يمكنني مخالفة الشيخ. فاستأذنت، فأذن لي، فلما دخلت رأيت ما هالني من العبيد والخدم والشارّة الحسنة، فقلت له: أخوك فلان يسلم عليك.

قال: جيئت من عنده؟

1- حاجة ملحة .

2- الشيخ محمد الكسنزان - الطريقة العلية القادرية الكسنزانية - ص 151

3- فقيه مالكي وصوفي شاذلي الطريقة.

قلت: نعم.

قال: إذا رجعت إليه قل له: إلى كم اشتغالك بالدنيا؟ وإلى كم إقبالك عليها؟ وإلى متى لا تنقطع رغبتك فيها؟

فقلت: هذا والله أعجبُ من الأول، فلما رجعت إلى الشيخ، قال:
اجتمعت بأخي فلان؟

قلت: نعم.

قال: فما الذي قال لك؟

قلت: لا شيء.

قال: لا بد أن تقول لي؟

فأعدت عليه ما قال، فبكى طويلاً وقال: صدق أخي فلان، هو غسل الله قلبه من الدنيا وجعلها في يده وعلى ظاهره، وأنا أخذها من يدي، وعندني إليها بقايا التطلع. فهذا هو المبدأ الذي لخصه عنه الشيخ محمد الكسنان بقوله: «الزهد أن تملك كل شيء وأن لا يملكك شيء».

وإذاً، فيوجد من يستطيع أن يصل الى هذا النوع من السعادة الكاملة، السعادة التي لا تتأثر بها يملك الإنسان ولا بها يفقد.

إنني أصف مثل هذا الصنف بأنهم قافزون ربانيون، ليس كالتاس العاديين، ولا أحد يستطيع أن يفهم ما هم فيه، أو أن يصبح مثلهم ما لم يسلك مسلكهم، ويتهجج طريقتهم. يقول الإمام الغزالي (رحمه الله)⁽¹⁾:

1- أحد أهم أعلام عصره وأحد أشهر علماء الدين في التاريخ الإسلامي.

«والفرق بين الصوفية وغيرهم هو أن الدنيا لا تستبعدهم وإنما تستبعد غيرهم وأنهم لا يلقون بقيادهم إلا الله فلا يلقون بقيادهم إلى مالٍ أو جاهٍ أو منصبٍ أو رياسةٍ أو غير ذلك مما يَدُلُّ أهل الدنيا وأهل الأهواء الذين يتخذون دنياهم وأهواءهم آلهة يعبدونها من دون الله إنهم أغنياء أو فقراء تحققوا بقوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا﴾⁽¹⁾»⁽²⁾.



إذا كان ما أشرنا إليه من أمر أهل الطريقة صعب المنال على عموم الخلق فدعنا ننزل من السماء إلى الأرض، فإذا كان ما يذهب إليه الصوفية في مفهوم السعادة، وهو تمام الرضا عن الله تعالى في الشدة والرخاء. فأن الناس ليسوا جميعاً صوفية، ولا يعدمون الشعور بالسعادة، فما هي وكيف تتحصل؟

يروى الروائي البرازيلي «باولو كويلهو» قصة صغيرة يحاول من خلالها أن يجيب عن هذا السؤال فيقول: «أرسل أحد التجار ابنه ليتعلم سر السعادة عند الرجل الأعمق حكمة من بين كل الرجال. مشى الصبي أربعين يوماً في الصحراء قبل أن يصل إلى مدخل قصر رائع على قمة جبل. هناك يقيم الرجل الحكيم الذي كان يسعى للوصول إليه. بدلاً من أن يلتقي رجلاً قديساً دخل رجلنا إلى قاعة تنشط فيها حركة كثيفة، باعة يدخلون ويخرجون، وأناس يتحدثون في أحد الزوايا، وفرقة موسيقية تعزف أنغاماً

1- الحديد : 23 .

2- الإمام الغزالي - المنقذ من الضلال - تحقيق وتصحيح سعد كريم الفقي - دار ابن خلدون للنشر والتوزيع - الاسكندرية - ص 23 .

حَلَّابَة. وفيها طاولة مليئة بأشهى مآكل تلك المنطقة من العالم... والرجل الحكيم يتحدّث مع هؤلاء وأولئك، فاضطرّ الشَّاب إلى الانتظار ساعتين قبل أن يحين دوره بالكلام... أصغى الرَّجُل الحكيم بانتباه إلى الشَّاب وهو يشرح له سبب زيارته، ولكنّه قال له أنّ لا وقت لديه الآن ليطلعه على سرّ السعادة. واقترح عليه القيام بجولة في القصر ثم العودة ليقابله بعد ساعتين... وقبل ان ينصرف قال الحكيم: «ومع ذلك أريد أن أطلب منك شيئاً» أضاف الرجل الحكيم وهو يعطي الشاب ملعقة صغيرة سكب فيها نقطتين من الزَّيت. «خلال جولتك أمسك جيداً بهذه الملعقة ولا تدع الزيت يسقط منها».

بدأ الشاب يصعد وينزل كلّ سلالم القصر وعينه مركزتان على الملعقة. وعاد بعد ساعتين إلى حضرة الحكيم.

«إذا؟» سأل هذا الأخير «هل رأيت النُّجود الفارسية الموجودة في غرفة الطعام خاصتي؟ هل رأيت الحديقة التي عمل مسؤول البساتين عشر سنوات لإنجازها؟ هل شاهدت الرقّ الجميل في مكتبتي؟» ارتبك الشَّاب، واضطرّ بأن يعترف بأنّه لم ير شيئاً أبداً، لأنّ همّه كان ألا تقع نقطتا الزيت من الملعقة التي أعطاه إياها الحكيم.

«إذن عد وتعرّف على روائع عالمي». قال له الرَّجُل الحكيم، وأضاف: «لا يمكن الوثوق بإنسان إن لم نكن نعرف المنزل الذي يقيم فيه».

حمل الشَّاب الملعقة وهو أكثر اطمئناناً الآن، وعاد يتجول في القصر مركزاً انتباهه هذه المرة على كل الأعمال الفنية المعلقة على الجدران والمرسومة

على السقف. رأى الجنائن والجبال المجاورة ورقة لأزهار وتلك الدقة التي وضعت فيها الأعمال الفنيّة كل واحد في موقعه المناسب. ولدى عودته إلى الحكيم روى له بشكل مفصل كل ما رآه في جولته.

«لكن أين هما نقطتا الزيت اللتان أو كلتكن بهما؟» سأل الحكيم ...!

نظر الشاب إلى الملعقة فوجد أن نقطتي الزيت قد سقطتا منها. قال الحكيم عندئذ: «هنا النصيحة الوحيدة التي يجب أن أعطيك إياها: «إن سرّ السعادة هو أن تنظر إلى كلّ روائع الدنيا دون أن تنسى أبداً نقطتي الزيت في الملعقة...».

وإنها فعلاً، لمعادلة صعوبة المنال.. كيف يمكن التّركيز على أمرين متناقضين في الوقت نفسه؟ التّركيز إلى القطرتين يفقدنا الاستمتاع بكُلّ أنواع الجمال وروعة الحياة حولنا. وبالعكس فإنّ الاستمتاع بالحياة يفقدنا التّركيز على قطرتي الزيت.. وخير مثال على ذلك أن عشاق المائدة الخضراء في «مونت كارلو» أو «لاس فيغاس» يجرون وراء المال ويسعون إلى الظفر به بكُلّ ما أتوا من فطنة ونباهة.. ولكن أغلبهم يخسرونه ولا يكسبونه.. فما الحلّ؟.

يعتقد الفيلسوف «برتراند راسل»⁽¹⁾ أنّ الحل يكمن في أن نحصر على أن تكون أعمالنا «قطرتي الزيت» متفقة تماماً مع ميولنا «ما يمتعنا في الحياة»، ولما كانت أكثر أعمال الناس لا تتفق مع ميولهم، فالنتيجة الطبيعيّة لذلك

1- فيلسوف وعالم منطقي ورياضي ومؤرخ وناقد اجتماعي بريطاني.

هو أن أكثر الناس ينبغي أن يبحثوا عن السعادة خارج نطاق الأعمال التي يكسبون منها معيشتهم.. وفي غير المواعيد المحددة لها والتي تستغرق معظم أوقاتهم⁽¹⁾.

بتعبير آخر: على من يكون عمله غير متفق مع ميوله، أن يوازن بين الوقت الذي يصرفه في التركيز على «قطرتي الزيت» وبين الوقت الذي يهمل القطرتين تماما ولا يلتفت لهما نهائيا، وان يستمتع بما حوله مما ينعش ميوله. من يفقدوا السعادة هم من يكونوا ممتعضين أثناء حمل قطرتي الزيت مما يفوتهم من متع الحياة، ومهمومين بحمل القطرتين في أوقات الاستمتاع، هؤلاء فعلا لن يجدو طعما لحياتهم لا في وقت العمل ولا خارجه.

ذهب صديقان لصيد السمك، فاصطاد أحدهما سمكة كبيرة فوضعها في سلتة، ونهض لينصرف، فسأله صديقه: إلى أين تذهب؟ فاجابه: إلى بيتي، لقد اصطدت سمكة كبيرة تكفيني.

فقال له صديقه: أنت اليوم محظوظ، انتظر لتصطاد سمكة أخرى لعلها تكون كبيرة أيضا، وربما أكبر.

فقال له: ولماذا أفعل ذلك؟

فقال له صديقه: عندما تصطاد اكثر من سمكة يمكنك أن تبيعهم.

فقال له: ولماذا أفعل ذلك؟

1- سيد صديق عبد الفتاح - السعادة كما يراها المفكرون - مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر - بيروت - ص 143.

فقال له صديقه: كي تحصل على المال وتدخره.

فقال له: ولماذا أفعل ذلك؟

فقال صديقه: لكي تكون ثرياً.

فقال له: وماذا أفعل بالثراء؟

فقال صديقه: تستطيع في يوم من الأيام عندما تكبر أن تستمتع بوقتك مع زوجك وأولادك.

فقال له: هذا بالضبط ما أفعله الآن، ولا أريد تأجيله حتى أكبر ويضيع العمر، أو أموت فلا أفوز بهذه أو تلك.

القافزون، لا يؤجلون سعادتهم إلى المستقبل، أتهم يتعايشون معها يوماً بيوم من أيامهم في الدنيا.

مرت عليّ فترة من الزمان، كدت فيها أصاب بكآبة من حرّ الصيف الذي لا يطاق، فإذا جاء الشتاء انقلبت من النقيض الى النقيض، وأخذت أتأفأف من برده القارص.. حتى انتهى بي الأمر أنّي اقا سي برد الشتاء وأخشى قدوم الصيف بحرّه، فإذا جاء الصيف تدمّرت من حرّه، ولا تفارقني عذابات برد الشتاء.. صار الهمّ مضاعفاً.. وفي أحد الأيام سمعت بيتين من الشعر أثريا بالفعل في صميمي وهما:

يطلب الانسان في الصيف الشتاء فإذا جاء الشتاء أنكره

لا يذا يرضى ولا يرضى بذا قتل الانسان ما أكفره

فتوقفت وقلت مع نفسي: لماذا أفعل هذا بنفسي.. لماذا لا أقفز من هذه

اللاّلام؟ وشيئا فشيئا بت أعيش جمال اللحظة، في الصيف أشياء جميلة
تبدت لي بعد أن كنت معرضا عنها، وفي الشتاء رأيت أشياء لم أكن أتصور
أن أتمتع بها.. غاب عني البرد والحَرّ، وحضر أجمل ما فيهما، وانقلبت الآية،
فبتّ احنّ لهما معا.

إنّ الدنيا لا يمكن أن لتتنازل عن الليل أو النهار أبداً، بل لا يستقيم
الأمر إلّا بهما معا، وأنّ على الانسان أن يسعد بسبات الليل وسعي النهار،
وأنّ يعرف ان السعادة في عدم الخلط بينهما أو الركون إلى أحدهما على
حساب الآخر..



لقد تبيّن لي من جملة ما تبيّن، ان معظم من لا تفارقهم مشاعر السعادة،
هم الذين تمكّنوا من القفز وراء ما يسمى « عقدة بوليكراتس ». فما هي هذه
العقدة؟ ولماذا يعتبرها كبار علماء النفس أعداء مشاعر السعادة؟

كان « بوليكراتس » حاكما ديكتاتوريا، عاش منذ أكثر من ألفي عام
قبل الميلاد، وقد توفّر له كل ما يتوفر للحكام الطغاة من عناصر الثروة
والعزّ والمتع والشهوات.. لكنّه لم يكن يستمتع بذلك أبدا.. كان يخاف
من المستقبل.. كان يعتقد بأنّ الآلهة ما أغدقت عليه كلّ تلك النعم إلّا
لكي تنتزعها منه فجأة، لتمعن في النكاية به والسخرية منه.. فأشار عليه
بعض خاصته بأنّ يقدّم قربانا.. فأقام احتفالا كبيرا لتقديم ذلك القربان..
وبدا الاحتفال بالفاء أثمن خاتم عنده في عرض البحر.. ثم عاد في موكبه
البحري إلى الشاطئ.. فما كاد يجلس لتناول الغداء حتى وجد الخاتم الذي

ألقاه في البحر منذ ساعات قد عاد إليه في جوف سمكة مشوية مما صيد ذلك اليوم.. وهنا اشتد قلقه وزاد خوفه، إذ اعتقد بأن الآلهة لم تتقبل قربانه لاعتزامها الإيقاع به.. كانت هذه المخاوف تتعاظم حتى ضعف عن إدارة ملكه، واستغل أعداؤه ذلك، فاغاروا عليه.. وحطموا عرشه، واستباحوا امبراطوريته.

الواقع، إن أناسا كثيرين يشبهون «بوليكراتس» فقد يتوافر لديهم كل ما من شأنه أن يسعدهم، ولكنهم لا يعرفون السعادة ولا راحة البال بسبب توهمهم بأن القدر يتربص بهم، وأنه سيسلبهم أعز ما يملكون.. وبذلك يقضون أيامهم في تعاسة فإذا ما حصل أي حادث سيء فأنهم يعدون ذلك أمرا مؤكداً لمخاوفهم، وهذه الاوهام كلها تجر لهم الأرق والصداع واضطراب الهضم والعديد من الأمراض الأخرى.



يُحكى أن فقيراً سافر إلى حج بيت الله الحرام، فبلي حذاؤه والهبت الصحراء قدميه، ف قضى سفره ساخطا على سوء حظه الذي حرمه من مال يساعده على ركوب مطية توفر عليه مشقة السير فوق الرمال المحرقة.. حتى إذا وصل إلى مكة رأى على أحد أبوابها سائلاً مريضاً مقطوع الساقين.. فبكى واستغفر.. وأدرك أنه بقدميه أسعد حطاً من ذلك السائل المريض المحروم..

وهذا هو ديدن القافز، لا يتحسّر على ما لا يملك، بل يقنع بما فضّله به ربّه على من هم دونه.



في مجال الاستثمار هناك نظرية تقوم على مبدأ بسيط وربما معروف لدى البعض وهو مبدأ «لا تضع بيضك في سلّة واحدة» وهي تعني أنّ على المستثمر أنّ يوزّع ثروته في محفظة استثمارية على أصول مختلفة، أي في مجالات استثمارية متنوعة، تفاديا لخسارة كلّ شيء مرّة واحدة. وبشكل مقارب يقال إنّ أغلب القافزين السعداء هم الذين ينوّعون آمالهم، ولا يعلّقون سعادتهم على حبل واحد، فاسمح لنفسك بأن تستقي من كاسات السعادة من مصادر متعدّدة، حتّى إذا ما توقّف مصدر أو أكثر ركنت الى البقية.



يشكو كثيرٌ من الأبناء وخاصة في سنّ المراهقة ما بعدها بقليل من سوء فهم ذويهم لهم، وقد ترجمت عدد من المسلسلات سوء الفهم هذا على أنّه صراع بين جيلين، الأمر الذي يجعل السعادة تتبخّر من حياة العائلة خاصة إذا كانت من النوع الذي يقوم على الترابط، فمثل هذه العائلة يصبح التماسك فيها عمليّة صعبة مع مرور الأيام.. الأباء يحاولون والأبناء يتهرّبون، وكلاهما يتحسرون على ساعات السعادة الضائعة.

إنّه موضوع كبير وذو زوايا متعددة، ليست هذه الفقرة محلّ فتح النقاش فيها، لكنني أوجه خطايي إلى الأبناء الذين قد يرغبون بأن يقفروا بأنفسهم وأهليهم من سوء الفهم المتبادل هذا، وأقول لهم: لا تنغلّقوا على أنفسكم، لا تكتموا ما تفكرون به، تحدّثوا مع أهليكم، ليس مهماً أن تقنعوهم أو يقنعوكم، بل المهم أن يفهموكم، المهم أن تشعروا أنّهم يفهموكم حتى ولو كانوا معارضين لكم، او رافضين لأفكاركم إنّ كان فيها شيء من التطرف

كانت أفكاره متقلّبه، فهذا أدعى للحديث والحديث.



كان لي صديق، وضعت كل ثقتي به، صدقت معسول كلامه، وسلّمته زمام ما أملك من أموال، دون وصل أمان، ورغم تردّد زوجتي، إلّا أنّها ولثقتها بخياراتي تقبلت الأمر على مضض، وما هي إلّا دورة عام من الزمان أو أكثر بقليل حتى وجدت نفسي على المحكّ، فإمّا أن أفقد كلّ شيء، أو أن أسايره على أمل استرداد ما استحوذ عليه منّي، بلباقة لسانه، ولبسه لجة الصلاة وقيام رمضان.. وقد اخترت المسايرة، ولكن الأمر أعمق ممّا يظهر، إنّه جرح الخيانة، خيانة الثقة.. لقد أوليته ثقتي فخاني.. لقد كان ذلك الرجل في نظرنا «أنا وزوجتي» جامعا لصفات مثالية افتقدناها في معظم من حولنا؛ الشهامة، الصدق، الأمانة، الإيثار، الأخلاق، الكرم، التواضع... وهي أمور كنّا نعول عليها في علاقتنا معه. فلما إنهار هذا الصرح، لم يبق شيء يمكن أن نراه في كلّ من حولنا.

وما زاد طين بلوتي بلّة، أنّ زوجتي قد إنهارت تماما، فقد فقدت ثقّتها بخياراتي وبكلّ من حولي وحولها، لم يعد هناك ما يمكن ان تثق به البتة، هكذا صارحتني بعد شهور من إنقلاب المزاج والأحوال إلى درجة يصعب وصفها من التعاسة.

لم يبق من زاد معي إلّا خيط وحيد تمسكت به وهو العدول من الثّقة بأيّ شيء وبكلّ شيء إلّا الثّقة بربيّ، واعتمادا على تلك الثّقة، توكلت على الله وأعطيت كلمتي لزوجتي بأني ساسترد ما أخذه منّي ولو بعد حين.. وسارت الأيام وأنا أسايره حتى أكرمني ربّي بأن استعدت ما أخذه منّي.

توقفنا يوماً في «حدائق الحسين» بعمان، وكُنّا نخرج يومياً لنمارس رياضة المشي، توقفنا عن المسير ووضعنا النقاط على الحروف في مسألة الثقة من عدمها في الناس كلِّ الناس. فكانت هذه القاعدة:

لا يصح الثقة المطلقة في أيِّ إنسان

ولا يصحّ عدم الثقة بشكل مطلق في كلِّ إنسان

كلِّ إنسان يبدو عليه الصلاح، فهو عندنا: «صالح.. ولكن»

وكلِّ إنسان يبدو عليه اللاصلاح، فهو عندنا: «لا صالح.. ولكن»

لا يخلو الإنسان الصالح من نوازع النفس التي قد تحرفه عن الصواب حتى مع أقرب المقربين له، فهو صالح.. ولكن؛ قد يفاجئنا بما لا نحتسب

قد يكون لأيّ منا مبررات طويلة عريضة لعدم الصّفح أو التسامح، يأتي في مقدمها، إنّ من أحببته أو من وثقت به، أو من استأمنته، أو أيّا كان قد جرحك جرحا عميقا في صميمك.. نعم ذلك وارد.. ولكن لو تأملت قليلا، فستكتشف أنّك بغضبك وحنقك عليه فإنك كمن يلقي الملح على الجرح.. إنّك تؤلم نفسك بنفسك.. ولهذا قالوا: الصّفح هو أن تتحرّر من إحساسك بالجرح. وقالوا أيضا: إنّ التسامح أو الصّفح، هو لأجل سعادتنا نحن قبل أن يكون لخصمنا. إنّ في معناه العميق إن نسامح أنفسنا وأن نصفح عنها⁽¹⁾. وهو من سمات المحسنين عند الله تعالى، لقوله سبحانه: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾⁽²⁾.

إنّك إذا كنت تتوقع من الآخرين أصلاح ما أفسدوه، فإنّ خيبة الأمل ستلازمك طويلا، وخبية الأمل كالقشّة التي تدمع عين السعادة، فتخلّص منها ببساطة، وتحرّر من أغلال صيدئّة تكبل الرّوح. قليل هم القادرون على القفز إلى ما وراء جراحاتهم والآمهم.. لعلك تكون منهم.



أنّ أحاديث القافزين من رمضاء التعاسة إلى بحبوبة السعادة، ليطول بسردها المقام، ولكنّا كما أشرنا، قد أردنا هنا التلميح ليس إلّا، عسى أن ينقدح في روع القارئ ما به يجد ضالته.

1- جيرال دج. جامبولسكي - التسامح أعظم علاج على الإطلاق - ص 32.

2- المائدة: 13.

والعود حميد

عودا على بدء.. ما الذي رأيناه خلال رحلتنا هذه مع القافزين من شقوق الطين ورؤاهم..

❖ رأينا أنّ القافزين لم تحجزهم الأوهام والمخاوف من المجهول عن خوض غمار التجارب في الحياة مهما كانت، وحتى لو رأوا أنّ الأغلبية تمجم عن المخاطرة فيها، لأنهم مؤمنون بأنّ «الذين هم في قمة الجبل لم يسقطوا هناك فجأة»، وبسبب جرأتهم وخطوتهم التي توقف عندها كثيرون فأنهم تحقّقوا بذواتهم ونجاحاتهم. يقول المثل الصيني

: «خطوة أخرى للأمام، وأنّ الإنسان المخاطر هو الإنسان الحرّ».

❖ ورأينا أنّ القافزين اكتشفوا بطلان نظرية الفشل وأنّه الفشل مجرد أكذوبة وهمية ليس إلاّ، أي تحقّقوا بأنّ لا وجود للفشل في الحياة وأنّها هي تجارب توصل للمطلوب وتجارب لا توصل، وفي كلّ منها فائدة من نوع خاص ففي كلّ الأحوال هم فائزون.

❖ ورأينا أنّ القافزين يعتبرون الأحلام مفاتيح هامة للنجاح، وأنهم يعتنون بها كثيرا لكونها الحافز الذي يحملهم على الاستمرار برغم جميع الظروف التي تواجههم. ومن جهة أخرى فإنّ تمسكهم بالأحلام بطريقة إيجابية يفعل عندهم قانون التجاذب بنسبة كبيرة جدا خلافا لغيرهم.

❖ ورأينا أنّ القافزين ينطلقون من أرض الأحلام إلى فضاء الأهداف في إصرار ويقين يمكنهم الوصول إلى مصادر السعادة التي يريدون.

❖ ورأينا أنّ القافزين بخلاف سواهم يستفيدون من جميع الطاقات في الحياة حتى طاقة الذكريات الجميلة، ويدركون سبل التعامل معها، وسبل التخلص من إشكاليات التزامن التي تجلب التعاسة.

❖ ورأينا أنّ القافزين لا يقفون عند حدّ صناعة المجد لأنفسهم بل تصل همّتهم، ليصنعوا ذلك المجد لشعوبهم وأممهم ليقّ التاريخ مشيراً لهم بالبنان لما سَطَّروا من بطولات تفوق بقوتها توقعات الخيال.

❖ ورأينا أنّ القافزين يصلون إلى سعادتهم القصوى من خلال معرفتهم بأنفسهم وما أودع الله تعالى فيها من مواهب، ومن خلال ثققتهم بأنفسهم واحترامهم لها وتقديرهم لقدراتها وإمكاناتها.

وَمَّا قَدِمْنَاهُ نَخْلَصُ إِلَى أَنَّ (القافزين من شقوق الطين) أناس اتبعوا أبسط القواعد في الحياة للوصول إلى أعظم الأهداف التي بها تتحقق سعادتهم، وإنّ الأمر ليس حكراً على أحد، أي بإمكانك وقتها تشاء أن تسلك طريق القفز هذا ولسوف تجد أمامك الأهداف أو الغايات أو المقاصد التي أردت الحصول عليها.. والسلام.

- الدكتور إبراهيم الفقي - أسرار قادة التميّز - مركز الأصيل - 2001 .
- انتوني روبنز - خطوات عظيمة - مكتبة جرير - 2005 .
- التويجري - إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشرط الساعة - دار الصميعة للنشر والتوزيع، الرياض - المملكة العربية السعودية - ط2 - 1414 .
- جيرالد ج. جامبولسكي - التسامح أعظم علاج على الإطلاق - تمّ تنزيله من الانترنت .
- ديفيد فيسكوت، فجر طاقتك الكامنة في الأوقات الصعبة، كتاب في التأملات، ص27، تم تنزيل من النت .
- الدكتور ديفيد نيفين - مائة سرّ من أسرار السعادة، ماذا تعلّم العلماء عنها وكيف تستطيع أنت أن تستفيد منها - تعريب ابتسام محمد الخضراء - مكتبة العبيكان - ط1 - 2001 .
- رؤوف شبايك - 365 مقولة في النّجاح - مؤسسة الأجيال للتأليف والترجمة والنشر .
- روندا بايرن - السرّ - مكتبة جرير - 2008 م .
- سالم الرشيدى - مُحمّد الفاتح - مكتبة لبنان ناشرون - 1989 .
- سيّد صديق عبد الفتاح - السعادة كما يراها المفكرون - مؤسّسة عز الدّذين للطباعة والنشر - بيروت .
- صحيح البخاري - تحقيق مُحمّد زهير ناصر الناصر - دار طوق النجاة - ط1 - 1422

- الدكتور عبد الحلیم محمود - مقال سقراط والسعادة - مجلة حیاتك - العدد 5 - القاهرة.
- عبد السلام فهمي - السلطان محمد الفاتح - دار القلم 1975 .
- عبد العزيز بن إبراهيم العمري - الفتوح الإسلامية عبر العصور - مركز الدراسات والإعلام .
- الشيخ علي إبراهيمي - آثار الصلوات .
- الإمام الغزالي - المنقذ من الضلال - تحقيق وتصحيح سعد كريم الفقي - دار ابن خلدون للنشر والتوزيع - الاسكندرية .
- فيليكس جاكسون - فكر تصبح غنيا - الدار العربية للعلوم ناشرون - 1999 .
- محمد الجارحي - جريدة الدستور .
- محمد مسعود العجمي ، كيف نجح هؤلاء ، نماذج واقعية للتفوق البشري ، تجارب عالمية ، الكويت ، ط 1 ، 1997 .
- محمد صفوت - فتح القسطنطينية - دار الفكر العربي للطباعة والنشر - 1948 .
- الشيخ محمد الكسنزان - الطريقة العلية القادرية الكسنزانية - اليمن .
- الشيخ محمد الكسنزان - موسوعة الكسنزان فيما اصطلح عليه أهل التصوف والعرفان - دار آية - بيروت .
- الدكتور محمد مصطفى - فتح القسطنطينية وسيرة السلطان محمد الفاتح - الجمعية المصرية للدراسات التركية .
- يلماز أوزنتونا - تاريخ الدولة العثمانية دار التوزيع والنشر الإسلامية - 2001 .